مها محمد الفيصل

توبة وسلمى





المؤسسة العربية للدراسات والنشر

توبة وسلمى

رواية

توبة وسُلّيى / رواية
مها محمد الفيصل / مؤلفة من السعودية
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo

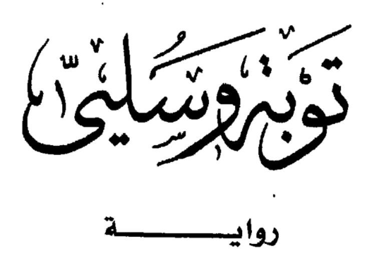
تصميم الغلاف :

محمد علي عبد الجوّاد

الطباعة والتجليد :
سيكو ـ بيروت ، لبنان

ISBN 9953-441-80-X

مها محمد الفيصل



رواية





أبصرت طريقا ثم أضعته، فكأنما شيء من خيال جال في خاطري فطاف بي لأتبعه، بيد أن الحقيقة تنأى وأنا سائر جواب أحلام . . .

وإذا بي أصل إلى رجل ساجد في خشوع تام . . . طال سجوده حتى ظننت أنه لا يقوم، ثم اعتدل من سجوده جالساً، فبدا لي وكأنه قد ملأ الأفق لدى استوائه . وصغرت الفلاه من حولنا على سعتها .

عجبت لما رأيت .ثم سلم الرجل وحيث همس "بالسلام عليكم" تحركت الرمال عصفا، يمينا ثم يسارا، وما أنْ هاجت الأرض لسلامه حتى سكنت، وكأن شيئا لم يحركها !

جلل الخوف قلبي لما رأيت من أمره، فلزمت مكاني. التفت نحوي ثم قال :

ـ قم معي لِنُصلِّ على الميت.

تلعثمت بالرد، واختلف علي ما ذكر فسألته :

ـ وأي ميت ؟

فلم أكن أرى سواه، وحسبتني الميت لشدة ما بي من خوف.

أجاب :

ـ ها هوذا !

مشيراً إلى نعش كان أمامه، قد لُفَّ صاحبه بقماش أخضر اللون طُرِّز بآيات من كتاب الله.

قلت :

ـ رحمه الله !

ثم قمنا نصلي عليه . وما كدت أحرك رأسي للسلام يمينا، حتى غاب النعش من أمامي !

سألت الرجل :

ـ أين النعش ؟

أجاب :

ـ ما لك تسأل عن مصير النعوش، أوَشَكّاً في وجهتها ؟

لم أنبس بحرف .

أردف :

ـ صار إلى هذا ...

ثم أخذ حفنة تراب و قال :

ـ أتحسب أنك في حلم ؟ هذه الحقيقة !

ورماني بقبضة التراب وهو يضحك .

قلت مفزوعا :

ـ حسبك يا أخي قد روعتني !

قال :

ـ أما يكون الأجدى أن يروعك طول اجتراحك السيئات !

أفقت من منامي هذا وأنا أردد عالياً :

طول اجتراحي السيئات ...

طول اجتراحي السيئات ...

دخل عليَّ أخي، فقد أيقظه صوتي وسأل :

ـ ما بك ؟

أجبته :

ـ هو حلم ... حلم ... عد إلى نومك .

بقيت هنيهة ثم قمت أبحث عن ماء أشربه، وأنا أحدث نفسي بأن ما رأيت ما كان إلا حلما . عندما عدت إلى فراشي جلست على طرفه أفكر، وإذ بي أسيِّر يداً من فوق الفراش لأجد جانبا منه قد تناثر عليه تراب !!...

لم أعد إلى نومي . وعزمت على مراقبة نفسي حتى أعرف كيف طال اجتراحي للسيئات وأنا أحسب نفسي من

الناجين ؟!

كان اليوم هو يوم عرسي .

في الصباح مر عليَّ أخي، فوجدني على حالي جالساً على طرف الفراش، سأل مبتسماً :

ـ كيف عريسنا ؟ هل أقلق نومك التفكر في يومك ؟

هززت رأسي ولم أخبره بالحلم .

تركني فعمدت إلى شيخ الجامع في مدينتنا ، عله يسعف حيرتي ويسكت تساؤلي .

سلّمت ثم سألت :

ـ كيف آمن على نفسي من اجتراح السيئات ؟

أجاب :

ـ ما هذه المشاغل في يوم عرسك ياولدي ؟ إن في زواجك عصمة لك من السيئات ...

قلت في نفسي : سبحان الله ! وأصلّي خلف هذا منذ سنين !

فقد أتعسني الرد، وأظهر لي من بلادة جوابه مالم أكن أعرفه عن شيخنا من قبل .

قلت له :

ـ يا شيخ إن العصمة من السيئات لا تكون بالزواج !

ولكني آثرت متابعة الصلاة في مسجده دون غيره،

لأنه كان صديقاً لأبي، وكي لا أكسر خاطره تحسباً لثواب الله، بعدما عرفت ما عرفت من طول اجتراحي للسيئات .

تركته وسرت إلى حيث يسير العريس في يوم عرسه ...

مضى يوم الحفل بأحسن حال، وأنا ساكن صامت . صار رفقائي يمازحونني عن سبب صمتي وإظهار همي بما يذكر، وما لا يذكر ... بعدها دخلت إلى العروس، لأجدها في كامل الزينة والبهجة، وجلسنا نتسامر . تحدثت إليّ زوجتي بحديث عرفتُ منه أنني قد عقدت على امرأة حمقاء، فأخذت على نفسي عهداً أن أصبر عليها عل ذلك يشفع لي عند ربي، بعد طول اجتراحي السيئات .

لعلكم حسبتم أن الجلوس إلى حديث الحمقى شيء محتمل، أقول لكم إن جلوس أصحاب الأخدود على النار قد يقصر، على حين تطول الحياة مع بليد ...

وطالت الحياة ... ومرت السنون ... وما زلت أجهل كيف يكون اجتراحي للسيئات، وأنا لا أعلم .

أكرمني الله، فولدت لي زوجتي أربعة أولاد قبل انقضاء الستة أعوام الأولى من زواجنا، وقد بدت عليهم جميعا بشائر الحماقة مبكراً.

احتسبتُ عند الله الثواب، وعظم بلائي، ولكن ذلك لم يلو عزمي على البقاء مع زوجتي، التي أفسدت علي

عمري. والعجب أنني كنت عليها محسوداً. كما أنها قد ورثت عن أبيها حظيرة أبقار، وعن أمها ذهباً كثيراً.

سمنت أبنائي الأربعة بعطاء الأبقار، ولمع ذهب أمها من حول عنقها الوافر، وأخذت تدب في الأرض بخلاخل عظيمة صنعت لها وهي تجول في بيتنا .

كنت رجلاً باراً بأهله، واصلاً لرحمه، قائماً على زوجتي وأولادي، وحسبت أنني قد قدمت لنفسي خيراً، ولزمت مرضاة ربي .

ذات ليلة وبينما أنا نائم ، إذا بي أرى الحلم نفسه ! فقمت مفزوعا أردد مرارا :

- طول اجتراحي السيئات... طول اجتراحي السيئات...

تمالكت نفسي بعد زمن وفكرت في أخي رحمه الله ، وأنا أنظر إلى زوجتي وهي في سبات عميق جواري، جعلت أنفض التراب عنها وهي لا تزال نائمة . قلت هنأها الله بنومها، فقد عدمت الهناء مذ تزوجتها .

كان قد مضى على زواجنا أكثر من سبعة عشر عاماً، عندما خرجت من الدار في تلك الليلة، بعد أن قبلت أبنائي الأربعة دون أن ينتبهوا إلى سقوط عبرات الحزن على وجناتهم الوافرة، أو يحركوا ساكناً، ثم ذهبت إلى غير عودة إن شاء الله ...

وزهدت فيما يحسد عليه البشر. الأبناء والزوجة والذهب والأبقار وكل تجارتي، طالبا رحمة ربي ...

مررت على مدائن وقرى، جبت أودية وقطعت صحارى أسأل عن حكيم، أو عالم، أو شيخ ، لم أجد من يشفيني فما أن أصل إلى مكان حتى يقال لي : من تبحث عنه قد ذهب إلى الحج،أو سافر في تجارة، أو مضى إلى وجهة ما... أو مات !

فكرت أنني لم أكن قد اجتزت بحراً بعد، قلت علي بالبحر، صوبت النية نحوه وطلبت من يحملني على سفينة تأخذني ... هناك ...! سألني رجل بتعجب :

ـ هناك ؟!

قلت بعزم :

ـ نعم، هناك !

أعاد علي مستفهما :

ـ تقصد... وذكر لي مكانا.

أجبته :

ـ هو المكان.

قال :

ـ إذاً مركبك العطاء، ستبحر اليوم بل لعلها الساعة، اذهب وقل للقبطان مراد، إن أخاه حامداً قد بعثك إليه. دعوت

الله له بالعافية والستر، وسرت حيث دلني مطمئن البال .

سألت عن سفينة العطاء، والقبطان مراد، فوجهني رجل إلى مركب صغير بدا لي من حالِه كأن البحر قد لفظه لرثاثة هيئته .

ناديت وأنا أضحك :

ـ هنا يكون العطاء !؟ ... هنا العطاء !؟

لم أتمالك نفسي وثنى عودي هجمة الضحك علي .

بدا رجل فوق ظهرالمركب فسألته :

ـ أأنت مراد ؟

وعدت إلى الضحك ثانية . فكرت : لو أنني خرجت من داري تاركا أهلي، لكي أصل إلى هذا المكان الذي فيه غشيت بضحك كهذا لكفاني ...

سأل الرجل :

ـ ومن السائل ؟

أجبت بعد أن تمالكت نفسي :

ـ فارس آل رخوان .

صار الرجل يضحك . قلت متعجباً :

ـ مابك يا رجل هذا اسمي واسم أهلي ؟

أردف :

ـ ومن سمّاكَ غريم مو حاقداً ؟

قلت :

ـ أبي !

قال :

ـ والله على مثل هذه الأسماء لا يحسد المرء ؟ يا فارس أين فرسك ؟ وزاد ضحكا ...

قلت ساخراً :

ـ وعلى مثل هذه السفن لا يحسد المرء ؟

ابتسم الرجل قائلاً :

ـ ما الذي تريده يا أخي ... فارس أين فرسك ؟

أجبته وقد وليت مدبراً :

ـ ... الله الغني !

نادى الرجل :

ـ ... عن العطاء !

تركته وسفينتة غاضباً، و بينما أنا سائر خطر في نفسي :

... والله إنه لجواب فطن !

وعدت إلى مراد، تعلقت بحبل وشددت نفسي حتى اعتليت ظهر العطاء وناديت مراداً الذي غاب داخل المركب .

أجابني مراد :

ـ إن نداء من غير سلام أبتر كعمل من غير بسملة .

ثم أضاف ضاحكا :

ـ سلم يا فارس أين فرسك ؟

قلت :

ـ تهزأ بي ؟

قال :

ـ لا بل باسمك ؟

قلت :

ـ ما أنا وما اسمي ؟

قال :

ـ اسأل نفسك .

أعدت عليه :

ـ أنت تهزأ بي !

أجاب :

ـ وإن فعلت ! ما أنت فاعل ؟

قلت :

ـ هذا... ولطمته لطمة وقع على إثرها وسال من رأسه الدم .

عندها خرجت من حجرة في المركب امرأة حسناء تصيح :

ـ تعساً لك قتلته !

وصارت تلطم وجهها وتنوح .

قلت بشغف :

ـ هو ليس بميت !

أكملت الحسناء :

ـ اعتليت العطاء تريد قتل مراد البِشر؟

قلت :

ـ والله لا أرى في مرادك هذا بِشراً ... إنه حي ! ها هو ينظر إلي ... مبتسماً.

التفتت إليه الفتاة تكلمه :

ـ فداؤك عمري ألف مرة يا مراد. فما أنا دونك إلا كلفظ دون معنى .

حدثت نفسي وقلت : سبحان الله ! ما ظننت مثل هذه تلتفت إلى مثل هذا سواء أكان حياً أم ميتاً ...

قال القبطان :

ـ سامحك الله يا أخي ! وشفاك من ضيق نفسك وأنفة طبعك ...

بينما الفتاة تطبب جرحه .

قلت :

ـ أنا ذاهب . . .

قال مراد :

ـ ذاهب معنا إن شاء الله .

سألت متعجبا :

ـ أوتأخذني معك بعد . . .؟

قاطعني القبطان :

ـ نعم، بعد لطم وشج . . . نعم .

ثم ضحك ، والفتاة تنظر إليّ بعتب .

جُهِزت السفينة للإبحار. نادى مراد "بسم الله مجراها ومرساها" وأطلق شراعاً أحمر جعل يلوح في الهواء، ثم شد حبلاً فاستقام، وصارت الرياح تُسّير مركبنا، وهو يشق طريقاً في البحر بخفة وسرعة .

أحسست بانشراح كبير، وأنا أتأمل السماء والبحر يتسعان أمامي كذراعين ضمتاني والمجهول، ومضينا . . .

لم أكن قد رأيت الفتاة مذ أن أبحرنا، ولم أكن أقدر أن أسكن عقلي عن التفكير في أمرها. بعد مرور أيام سألت صاحبي، بينما نحن نقتسم خبزا وعسلا تحت سماء صافية، ونشوة هواء البحر الطلقة، تشنف أسماعنا أصوات طيور النورس، وأمواج لطاف .

قلت :

ـ يا مراد من تلك الفتاة ؟

أجاب :

ـ أي فتاة ؟ وجعل ينظر من حوله .

قلت :

ـ تلك التي رأيتها قبل إبحارنا... ضحك مراد وصار يضرب الأرض برجله .

أحسست بانزعاج ثم سكت فجأة، ونظر إليّ مجيباً :

ـ والله لقد تحشمت عن هذا السؤال طويلا ! هذا جيد . هي جاريتي سُليًّى ...

تابعت :

ـ لم أرها منذ ذلك اليوم !

هنا استشاط مراد غضباً، وأخذ بناصيتي، ثم حملني وألقى بي من فوق ظهر المركب، وسقطت في البحر وقبل أن يخطر إلى قلبي خوف ...

غمرتني المياه صرت أصرخ وأنادي :

ـ يا مراد اتق الله ! يا مراد كلنا إنسان ! يا أخي هذه نزغَة شيطان وسيطول عليها ندمك إن لم تغثني !

ومراد لا يجيب .

أيقنت أنه لا سبيل للنجاة في بحر بلا شطآن إلا بمركب العطاء، فصرت أسبح بكل قوتي نحوه وهو ينْأى .

أحسست أنني بدأت بالغرق ، والمركب ماثل أمامي لا أقدر أن أصل إليه حتى استيأست من الحياة . وإذا بحبل من العطاء يسقط نحوي، تعلقت به حمدت الله وخطر في نفسي : أنني من غريق إلى صحبة مجنون لا ضير... ثم سحبني مراد إلى السفين . علوت سطح المركب، وحالي يُرثى له .

نظرت إلى مراد ثم قلت له برفق :

ـ ما بك يا أخي أويفعل هذا بصاحب سفر؟ هذه والله صنيعة سوء !

سكت مراد ولم يجبني، وزاد غيظي فأضفت بصوت جهوري :

ـ لن أحلك ما حييت ، ولا حتى بعد مماتي، ولا يوم الحشر، وسترى أينا أضعف جنداً !

لم يجبني مراد فصرت أصرخ :

ـ ترميني مثل صيد نتن ولا تبالي !

هنا قال مراد :

ـ أويسأل مراد عن سُليّى ؟

قلت :

ـ لم لا ؟ و يسأل رب العزة عن جنة عدن ؟

أردف مراد :

ـ أوما تعلم بأنني رجل غيور ؟

قلت :

ـ بل مجنون !

ثم تركته و هو أبغض إنسان إلى قلبي .

جلست في حجرتي لا أخرج منها ، إلى أن أتت ليلة قد استحال علي النوم فيها ففكرت أن أخرج إلى ظهر السفينة، لأتمتع بهواء الليل العليل، لم أقابل مرادا وحمدت ربي لذلك فقد مُلئت نفسي ضغناً عليه، جلست أنظر إلى الأفق وقد لمعت الأمواج كصفحة من حديد يتنفس من تحتها البحر، فيرفع السفينة تارة، ثم يخفضها تارة أخرى، في إيقاع ساحر أخذني، فلم أشعر بأن مرادا كان جالسا بجواري . عندما التفت نحوه ورأيته، عبست في وجهه، و نهضت تاركا له . أمسك مراد بيدي وأقعدني عنوة . كان مرادٌ رَجُلاً جسيماً، ثم سأل في غير هزل :

ـ ما الذي أغضبك مني ؟

قلت :

ـ سبحان الله ! أحسبك مازحاً عندما ألقيت بي إلى البحر . ولا أستحسن مزاح الثقلاء .

أجاب جاداً :

ـ لا لم أكن أمزح !

هنا انتفخت غيظا وقلت :

ـ يا أخي لا أريد التحدث إليك !

قال :

ـ أنت مخطئ، تعال معي لأريك حجرة من سألت عنها ...

وقبل أن أتمكن من الردّ دفعني أمامه، وسرنا في سرداب ضيق إلى أن وصلنا إلى باب صغير، فتحه مراد، ودخلنا إلى غرفة لم أر في حياتي لها مثيلاً، واسعة قد ملئت بشموع عطرة، غطت جدرانها بأحسن الأقمشة وأبهجها، وفرشت بسجاد بديع ووسائد وافرة، كان بها صحاف رصت فيها فواكه وأطايب متنوعة، فكأنما النعيم قد كسا المكان بكل ما لديه وزيادة .

دهشت لِما رأيتُ ، وما أدهشني أكثر هو أن تكون مثل هذه الغرفة في مركبنا هذا على بساطته قلت :

ـ سبحان مبدع الأرض والسماء وخالق الزمان والمدى كيف توجد هذه هنا؟ ولم أسأل بالطبع عن سُليّى التي غابت عن المكان .

قال مراد :

ـ اجلس !

جلست وعيناي تجولان في أرجاء الغرفة، فرأيت عن

يميني، قفصاً كبيراً مُلِئَ طيوراً جميلة متعددة الألوان والأحجام كلها صامتة، قلت :" لعلها تكون نائمة "، وعن شمالي، وجدت نولاً لحياكة السجاد قد صنع من ذهب رصع به جوهر، قمت إليه لأرى عن قرب نقش السجادة التي كانت تنسجها به، فإذا هو صور لأفراد!... نساءٍ ورجالٍ، يرتدون ثياباً فاخرة وهم يتجولون في قصور بديعة . منهم من ظهر في بساتين خلابة، وباحات أنيقة، ومنهم من بدا وكأنه يعزف، ومن يغني، ومن يأكل من أطباق فاخرة، وهكذا. أسعدني ما رأيت من جمال و صنعة لطيفة . لفت الأجزاء التامة من تلك السجادة، فلم أتمكن من رؤيتها جميعا، لكثرة ماقد طوى منها، قلت لمراد :

ـ تحمل هذه كل صور النعيم !

أجاب :

ـ نعم، تلك صنعة سُليَّى .

جعلت أتفحص الجزء الذي ظهر لي ولم يكتمل بعد، فتنبهت بعد برهة من إعجاب، إلى أن كل من ظهر فيها قد بدا على وجوههم علامات الحزن والأسى !

سألت مرادا متعجبا :

ـ هؤلاء كلهم تعساء ! كيف يكون ذلك ؟

أجابني :

ـ أنت محق، فهم سجناء . قد سجنتهم سُليًّى في نسجها...
هنا ابتعدت عن صنعة سُليًّى .
وقلت :
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، عجبا ما ذكرت يا رجل أويحبس الأحياء في نسج من زينة ؟!
قال مراد :
ـ انظر يا فارس !
وهو يشير إلى جزء من النسج . فاقتربت منه بترقب وسألت :
ـ أين ؟
أشار :
ـ هنا... هذا أنت !
نظرت وإذا بصورتي لم تكتمل بعد، قد ظهرت في النسج .
قلت :
ـ وما الذي أتى بي هنا ؟
أجاب مراد :
ـ أنت !
ثم أردف :

ـ ألم تكن تبحث عنها ؟

قلت بامتعاض :

ـ وما يعني هذا الهراء !

قال مراد :

ـ اسأل نفسك . فهل تَسْلو عمرك أم تحياه ؟

ثم أضاف دون أن ينتظر مني جواباً لسؤاله :

ـ انظر إلى المكاحل التي صنعتها من ريش الطيور الحبيسة، وأشار إلى منضدة قد رصت عليها مكاحل لطيفة أنيقة، بعضها صنع من ذهب، وبعضها من فضة وعاج، وأخرى نحتت من الجوهر الخالص .

قلت في الحال :

ـ سأطلقهم !

فقد سئمت من سُليّى وحبسها الأحياء.

ضحك مراد وقال :

ـ وإن فعلت فلن يستطيعوا التحليق، إلا صغيرهم هذا ، فلم تأخذ سُليّى من ريش أجنحته بعد. وأشار إلى طير ترابي اللون كان قد وضع رأسه تحت جناحه ونام ...

قلت :

ـ إذن أطلقه !

قال مراد :

ـ افعل، إن وجدت المفتاح .

أجبته بعزم :

ـ أجده إن شاء الله !

وجعلت أبحث عنه . بينما أنا في بحثي، إذا بمراد قد اضطجع ونام . خطر في نفسي : ما أشبهه بزوجتي ... تذكرت أبنائي الأربعة فحزنت ...

تابعت بحثي، فكشفت ستارا، ووجدت به جيباً. فتحت الجيب، فإذا بداخله خمسة كتب صغيرة أخرجتها كلها، وجعلت أتفحص الكتب واحدا تلو الآخر، أجملها كان أحمر اللون قد رسم عليه وردة ما رأيت مثلها قط، فتحت الكتاب فإذا بطيب يخرج من بين صفحاته وكأني وقتها أحمل بين يدي قارورة عطر. خطت صفحات هذا الكتاب العبق بخط محكم تام البنية، كادت ترقص كلماته بخفة من فوق الأوراق، وكأن المداد صار نغماً يُرى، حملت تلك السطور قصة، بدأت في التو قراءتها بعدما أعدت الكتب الأربعة الأخرى إلى الجيب المخفي في الستارة، وهذا ما قرأت...

بسم الله الرحمن الرحيم

...كان بساط إيراني الصنع تبريزي الحبكة، لطيف الزخرفة، رقيق الملمس، إذا رأيته خلته بستانا من الزهور البهيجة . يلمع كالسراب، ويتلألأ كالماء الذي تموج من تحته الألوان والصور، بتحرك ظلال الحسن عليها حتى كادت أزهاره تنطق فتغني. وقد تردد بين الناس أن هناك من سمع زهورها، وهي تتغنى بأشعار رقيقة كنسمة فيحاء ... لحافظ الشيرازي .

ومنهم من كان يجزم بأن أريج مئات الورود يتضوع من تلك الغرفة، فيملأ الدار عبقا ... ثم يغشى القرية كلها.

كلما دخل أحد إلى الغرفة التي فرشت فيها السجادة سحره جمالها، ووقف عند بابها ذاهلاً، لا يقدر أن يخطو فتطأ قدماه أطرافها، عندها يسأل صاحب الدار عن أمر هذه

السجادة، ومنذ متى كانت له ؟!

فيجيب مبتسما بأنها في أسرته منذ زمن بعيد توارثها أبا عن جد .

ذات يوم مشرق ولدت في هذه الدار طفلة ...

في الشرق أساطير تروى منها: أنه عندما تولد فتاة في الأرض، تزهر وردة في الجنان . وقد أزهرت في الأرض سارة ...

مضت أيام، بل ولت أشهر وسارة تكبر في هناء وجمال. كان أحب شيء إلى نفسها هو أن تحبو حتى تصل إلى الغرفة التي فيها السجادة، فلعل أمها تفقدها فتجدها دوما في المكان نفسه، مستأنسة بالصور والألوان التي كانت تهتز على سطحها كإيقاعات خافتة، وأنغام ساكنة . أحياناً تضع أذنا على نسجها كأنها أخذت تنصت إلى همهمات، أو تستمع إلى أسرار فتعلو ضحكاتها .

مضت السنون، وقد زادت فيها سارة جمالاً وفطنة .

ذات مساء وهي تروح وتجيء في أروقة بيتها ، أبصرت من باب الغرفة التي بها السجادة أجمل وردة وقعت عليها عيناها ، وهي تخرج من بين خيوط النسج كما ينبت الزرع من بين حبات الأديم، أشرق جمال الوردة عند تمام نمائها كالشمس، فمالت تيهاً ، ونشرت عطراً أحاط البيت سحراً.

تنفست سارة العبير وملأت عينيها بحسن الوردة، ثم قالت : لعل غناء الورود أريجها ...؟

اقتربت الفتاة مني باندهاش ونشوة ولم تقدر إلا أن تبتسم لما رأت من جمالي، فأظهرت ثنايا بيضاً متراصة كاللآلئ ...

هنا قلت لها، فقد بقيت على عهدي بها، بيد أن سارة نسيت أحلام الطفولة :

ـ آه سارة ! كم ذكرني مبسمك هذا بصديقي الأقحوان الذي يُلبس الربوع ثوباً أزهر وضاء، كأنه نور... نور بارد يكسو البسيطة .

قد غذّى دفء الشمس جذور الأقحوان -كما الحب الذى يبقي حياة القلب- فأنبت زهرة ثلجية غراء، في مبسم أبيض حزين، يملؤه جمالا دفء غرام يرتعش بذكرى المعشوق الغائب.. صديقي الأقحوان الوحيد ...

نظرت سارة إلي في دهشة بالغة، أحسست بما لم تُبْدِيه، وظننت أن عجبها يكمن فيما ذكرتُه عن الأقحوان، فأكملتُ حديث الزهور :

ـ ... لعلك تعجبين أنني أصف الأقحوان بالوحيد فالأقحوان ما هو إلا ذكرى لمبسم حبيب غائب، ففي كل يوم يمر تبكي السماء لدى فراق الأحباء، هذا هو ناموس دنيانا،

وتنبت زهرة الأقحوان كابتسامة محملة بعبق الذكرى ... فما يمر أحد بربوعها إلاو تملك قلبه هواجس البعاد.

هنا قاطعتني سارة مبدية سبب عجبها الحقيقي :

ـ يا إلهي ! إنك تتحدثين فعلاً ! نائلة لم تكن تكذب ... أنت تتكلمين !!

أجبتها بأنفة :

ـ بالطبع أتكلم ! ولكن نائلة كذبت ! فماحدثتها قط !

أطرقت سارة ثم قالت :

ـ ماحسبت أن أسناني تشبه الزهور ! و أنا أرى أن الأقحوان هو أسعد الزهور شكلا في بستاني ؟

قلت :

ـ لعل ذلك يصدق في بستانك أنت . ولكن أسألك أما يكون استحضار حبيب أفضل من قلب خوى من حب ؟ قلب يسير في ساحات الحياة ودروب العمر دون معشوق يتلمس وجهه أينما ولى ... لكأنّ ذلك مثل صحراء جردت من جمال، صحراء لا تحمل أي وعود، لا تختبىء بها أسرار ولا تبهجها أنوار... فكما تعلمين ... أم أنك لا تعلمين بعد ؟! ولا بد من يوم يأتي تعلمين فيه أن الأزهار ما هي إلا أسرار يحملها قلب البسيطة . ويظهور كل زهرة من فوق وجه الأرض يتبدى سر... يتفتق

ليحيا...

قاطعتني سارة قائلة :

ـ أنا لا أحب أن أضيع أي شيء ناهيك عمن أحب ! لكان آلمني ذلك كلما تذكرت ضياعه .

أجبتها :

ـ ألمك يعني أنك حية . الأموات هم من لا يألمون. اعلمي أن حياة القلب في غير رغبته، الرغبة تجعل القلب يرتعد متلهفا دون سكون، قلقاً... عَجِلاً... أما الحب فيبقي القلب خَضِراً رقيقاً متأملاً... والضياع أنواع .

ضياع يسوق إلى لقاء أتم وأكمل، وهناك ضياع يحجب ويبعد.

فكّري... لو أنك أضعت حاسة الشم كيف لك إذا أن تتمتعي بنفحات الجمال ونسائم الألطاف العطرة ؟! وكيف لنفسك أن تشمئز من فيح الدنائس، وتأنف من نتن مستنقعات السوء ؟!

تساءلت سارة وكأنها أخذت تحادث نفسها :

ـ الثنايا ثم الأنف فماذا عن العيون ؟

صَمتُّ لحظة ثم قلت :

ـ سأحكي لك بعد قليل قصة الرجل الذي فقد حاسة شمه، تلك قصة حزينة فعلا ولكن حيث إنك تسألين عن العيون

فسأصف لك صديقتي النرجس . بعضهم يسميها عيون الحقول، وبعضهم يقول بأن ليس لها عيون إلا لترى نفسها... يقال إنه عندما وقعت عين النرجس على نفسها أبصرت ما أسعدها فعلا، فابتسمت ابتسامة شكر وعرفان لخالقها الذي أبدعها، ابتسامة لا يخبو بريقها.

هنا أخذت أغني لسارة...

والنرجس المنتقى في ثوبه فرح

والقطر يلمع والأهداب ترتعد

ضحكت سارة قائلة :

ـ يا لها من زهرة مغرورة !

أجبتها في الحال :

ـ ما ذاك بغرور. ولكن عرفان. فكما ذكرت فإنّ الجمال يقبع في كل ما خلق الله ليراه من كانت له أعين يعي بها. ولكل من أطلق بصره فارتَدّ إليه بآيات الحسن من حوله وفي نفسه فابتهج قلبه لذلك وعَرفها، فعرّفها. أما أنا...

أكملت بفخر :

ـ فحياتي تكمن في أعين وقلوب المحبين . جمالي ما هو إلا صورة عشقهم . ومنذ بدء الزمان أحمل هذا الشرف

وأحرسه . أنا مرآة الحب .

و انطلقت أغني...

يا وردة فوق تاج الحسن زاهية

رفقا بقلبي فإني بلبل تعب

قد جن قلبي بحسنك فامتطى أملاً

لعل ساقيك يأتي بعد مغترب

ثم قلت الآن دعيني أحكي لك قصة الملك الذي أحب نفسه ... قاطعتني سارة متسائلة :

ـ وماذا عن الرجل الذي أضاع أنفه ؟

أجبتها بحزم :

ـ قصة الملك أولاً ...

ثم بدأت حكايتي ...

... عــاش في زمن مـن الأزمــان ملك لـم يكن بالـسيء المعن ولا بالخير الناسك .

أفـاق ذات صباح وقد عزم على إقـامة عـيد لنفسـه في كل سنة، حتى يظهر قـوته، ويزهو بعظمتـه، ورأى الملك أن يسعـد ضيـوفـه بحدث فـريد بديع، ظاهره طرافـة، و باطنه غرور.

كـان قـد منَّ الله على أرضـه بأن تنبت فـيـهـا أفـضل الورود قـاطبـة؛ فـأمـر بأن تُجـمع آلاف من الـورود من كل أرجاء مملكتـه، وتنتزع أوراقها ليلقى فـتات الورد هذا، في أمـواج من ألوان بهـيجـة، تملأ السـمـاء، وتهـوى عطرة ريانة من فـوق رؤوس الحضـور، وهم يتـسـامـرون، ثـم يسـقط ذاك الحسن كله ليلمس الثـرى، فـتطؤه الأقـدام غـيـر مـبـاليـة. وتبـاعـاً يداس الجـمـال ليـذوي في التـراب ... فـينسى ... هنا ارتعدتُ باشمئزاز وسكتُّ .

قالت سارة :

ـ إنه كان لامحالة منظراً ساحراً أخاذاً.

أجبتها :

ـ للأسف لقد كان ... وذلك جعل الملك يزيد من أيام أعياده هذه وبازدياد الأعياد، أخذت الورود تتناقص في مملكته. وهكذا يا سارة أضحت الورود مرآة للغرور لا الغرام .

جاء اليوم الذي لم يبق في مملكته وردة واحدة، لتعطى للمحبوب، اجتمعت كل الزهور والناس أيضا خاصة المحبين منهم لِنَعْي هذا الخسران، وبعد تشاور استقر الرأي أن يؤخذ بما نصحت به الريحانة مقوية القلوب قالت الريحانة :

حتما على الملك أن يحب ! وأنا أعرف من يمكنها أن تلمس قلبه الخاوي ...

قاطعتني سارة :

ـ هذا سحر !

قلت :

ما كان سحراً بل قدراً. ولم يجد الملك ما طلبته المحبوبة .

سألتني سارة :

ـ هذا يعني أن الملك كان قد وقع في الغرام حقاً.

أجبتها :

ـ نعم ! وقد طلبت حبيبته أن يأتيها بهدية الحب وردة كاملة الحسن . وكما تعلمين أنه كان قد أفنى ورود مملكته قبل أن يباغت الحب قلبه .

تحدث وزير الملك عن تاجر ذكي قد جاب البلاد، ولديه علم بمكان الورود ...

صرخت سارة :

ـ لا ! ورود أخرى مصيرها التمزيق والطين ...

قلت :

ـ بل وردة واحدة ! وردة واحدة، أراد تقديمها الملك لمن أسرت قلبه . هذا مالم يعرفه الوزير عندما أتى الملك بعلمه الضئيل. فقرر أن يخرج باحثاً عن وردة، تامة الإبداع . ما لم يكن يعرفة الملك هو أن كمال الورد يكون على قدر صفاء قلب طالبه ...

هنا استأذنتُ سارة في إكمال قصتي لاحقاً، وقبل أن تجيبني أطبقت نفسي داخل نسج السجادة في صورة ساكنة حلوة .

في الليلة التالية اشتاقت سارة لسماع قصتي فدخلت إلى الغرفة، وانتظرتني فغشاها نعاس ونامت .

أفاقت على صوتي وأنا أقول :

ـ آه !... حقا إن التحاور مع بني آدم كمن يخط على

السحاب . فتاتي العزيزة تنام بيد أنني في انتظار لإكمال قصتي ... رفعت سارة رأسها... فبدأت في الحال حكايتي :

خلع عن نفسه ثوب الملك ...

سألتني سارة مقاطعة وهي تدعك النوم عن عينيها :

ـ من ؟

لم أجبها، فأعادت علي :

ـ من ؟

قلت بتنهيدة :

ـ من، حقا؟ الملك بالطبع ! كان قد اصطفى ثلاثة من أشد حراسه لمصاحبته، كي يتمكن من السير سريعا ومن ثم العودة إلى حبيبته ...

سألتني سارة :

ـ ما كان اسمها ؟

قلت :

ـ ريحانة .

تابعت سارة سائلة :

ـ وهل كان بها ما يميزها ؟!

استغربت سؤال الفتاة وقلت :

ـ أو يطلب المرء تميزاً فيمن يحب ؟

ثم أخذت أغني لها . . .

قد يختفي المرء تحت الثوب منطويا

تحت الغبار . . ولكن عنده عهد

من تكن تربة الأعتاب مسكته

عند الصديق فتاج ترابه شهد

أكملت بعدها قصتي قائلة :

ـ فقد مضى الملك في طريقه بقلب قوي وعزم أكيد، وبعد مرور أيام وليال طويلة، وهو سائر، وقع على أغرب منظر رأته عيناه : امرأة مرتدية ثوبا عجيبا هائمة فوق تلال تبكي وتنوح. اقترب منها الملك وحرسه. صاحت الفتاة متألمة. نظر الملك فوجد أنه كان يكسو جسدها ثوب من الشوك !

هنا قاطعتني سارة :

ـ يا له من لباس مزعج فعلا !

قلت :

ـ بل رداء عذاب لا يطاق، وعندما تبين للملك ما بها ،

أمرها بخلع ثوب العذاب عنها في التو والحال، فقد كان الملك معتاداً على إعطاء الأوامر، أوامر كانت فيما مضى تطاع .

أجابت الفتاة :

ـ لا أستطيع ! لا أقدر! ولا تسألني لماذا؟ كل ما أعرفة هو أنني ذات يوم صنعت ثوبا من ألف وردة تامة الحسن، وبينما أنا أرتدي الثوب العطر إذا بهاتف يهتف : إن الورود التي لم تزهر في القلوب أولا لابد لها وأن تنقلب إلى أشواك ... فما عرفت لحظة راحة بعدها ...

وأخذت الفتاة تبكي بحرقة .

رق الملك لحالها ، فقد حيره أمرها ، وقال :

ـ تعالي معنا. فلعل ما نبحث عنه يكون سبيلك إلى النجاة .

تبعتهم الفتاة، وبعد سير طويل في صمت، وصلوا إلى مكان مغطى بصخور حادة أخذت تلتمع تحت ضوء القمر، كان المكان ساحراً فتاناً يدعوهم للاقتراب منه ...

سكت هنيهة ثم أكملت :

ـ ولكن قرر العابرون أن يبقوا في مكانهم حتى الصباح، فوضعوا رحلهم وأمتعتهم وركنوا إلى النوم ...

قامت سارة من مكانها و سألتني بدهشة :

ـ وكيف لهم أن يناموا أمام منظر مثل هذا، ألم يغشهم فضول ؟!

قلت :

ـ الفضول لا يغشى من يبحث عن الحياة و لا ينتاب رحال المنتهى... ولكن فتاتي العزيزة أسألك لو أنك أبصرت زهرة فاتنة رائعة ماالذي تفعلين ؟ هل تلتقطها يدك العابثة تطبق بشدة على رقتها بقبضة قاسية متفحصة، فترهق أوراقها المطوية، و تفسد جمالها المشرق . بعدها ترين ما يبقى في كفك، أما يكون لحظة من أريج حبيس مقهور، يكاد يحمله النسيان لتوه ثم يمضي. أم أنك تنتظرين حتى تتفتح الزهرة طليقة حرة، فتظهر بهاء ما تحفظ من جمال وتفصح عما تحمله من أسرار وأحلام، مختبئة بين أوراقها العطرة ؟!

هذه هي، آداب الاستماع إلى القصص !

وصرت أغني لسارة ...

القلب كالورد يخفي السر داخله

في كل يوم بدا في ثنيه سر

قاطعتني سارة :

ـ أرى حقلا لامعاً يفترش من أمامي وكل ما أفعله هو

النوم !

لم أعبأ بامتعاضها، وأكملت حديثي :

- أظهر لهم صباح اليوم التالي ساحة من صخور البلور امتدت إلى غير نهاية تحت الشمس كصفحة من نور. احتبس من تحت هذا البحر اللامع مئات من الورود نضرة الألوان بهية، وكأنها تتنفس بكل أنغام الربيع وأفراحه، ولكن ذلك الحاجز البلوري البراق منعهم من تلك الزهور الساكنة. حاولوا مرارا كسر الحاجز دون جدوى، وبينما هم يتدبرون طريقة للوصول إلى الزهور المنيعة إذا بصوت يقول :

أيها القلب أأنت سبع ؟! أم أنت نمر !؟ لتمزق روحي هكذا ؟

سألتني سارة :

- ما كان هذا الصوت ؟

كان صوت ريحانه متعبة مغبرة، تلك الريحانة كانت كمحارب مستوحد في فلاة الانهزام، ماثلاً بشجاعة من سئم الحياة .

أكملت هذه الريحانة :

- كان هذا الحقل جذلاً سعيداً تنبت فيه زهور ذات طلة هنية، كنا في أمان و بشر حتى سمعنا بملك كان جل همه

قتل الزهور، قدية غرور وكبر. عظم حقل الفساد حتى أدركنا، وباقتراب ساحة السوء منا زاد خوفنا وترقبنا فأمرتنا الأرض أن نختبئ فيها، ولا نظهر على وجهها حتى يرفع الله عنا البلاء...

هنا قاطعتني سارة متسائلة :

ـ ولم تركت الورود هكذا ؟

أجبتها :

ـ الورود لم تترك . بل بقيت تحيا تحت حاجز بلور، وذلك لكي يراها الملك . وعندها يمزق الندم والحسرة قلبه كالسبع أو النمر...

وبالفعل عندما سمع الملك تلك الكلمات من الريحانة فهم المقصود، وجعل يبكي ...

سألت سارة :

ـ ولكن ما الذي كانت تفعلة الريحانة في هذا المكان ؟!

أخبرتها بأن الريحانة ما كانت إلا رسولاً ترك لكي يفهم الملك ما قد غاب عنه ... الريحانة التي حادثت الملك لم تكن أكثر من صدى لحقيقة، كان لا بد للملك أن يعيها. تركت على دربه تعينه على الالتفات إلى ما قد سها عنه، فالغفلة متاهة حقاً. كما ذكرت لقد بكى الملك عندما سمع ما قالته الريحانة، وانهمرت دموعه أسىً وحيث وقعت

دموعه ذاب البلور المانع للورود، وبتواتر الدموع انكشف ما تحت البلور... بعد حين رفع الملك رأسه ليرى شجيرة ورد كاملة قد بدت من تحت حاجزها اللامع ماثلة أمامه...

صاحت سارة فرحة :

ـ حمداً لله ! وأخذت تصفق .

أكملت :

ـ للأسف لم تحمل تلك الشجيرة أي ورود ! فقرر الملك أن يبقى بجوارها حتى تزهر... مضت سنون والملك على حاله منتظراً تلك الشجيرة أن تزهر... طمر الثوب، وبلي الجسد، وشاب الرأس، وهو مايزال على عهده صابراً.

ذات يوم طار من فوقة بلبل وأخذ يغني شجيا...

أُعيِّر منك يا ورد . تقول :

بأن صداي أم شدوي يزول

فهل لأريجك الذكرى فيبقى

يُخلد لا يزول ولا يحول

ثم قال البلبل للملك :

ـ مرادك كائن ... ولكن من لأجلها طلبته أيها العجوز قد غابت ... قد غابت ...

سأل الملك :

ـ متى ؟

أجابه البلبل :

ـ الليلة عندما تنشر ملكة الليل عطرها فتملأ به ظلمته طيباً... ومنذ سنين ...

عند سماع ذلك أخذ الملك يعد نفسه للعودة إلى مملكته، وقال :

لابد وأن الورود ستزهر في أرجاء مملكتي الآن ... لن أنتظر حتى الليل ...

وبينما هو في طريق العودة إذا به يرى فعلاً أن الورود أخذت تغطي ربوع مملكتة .

هنا صرت أغني...

الورد الدمشقي يلمع

وجمال الكون به يسطع

وظلام الليل به يقطع

فتبارك ربي ما أبدع

ـ ماذا ؟! قاطعتني سارة بانزعاج : ما الذي تعنين ؟

أجبتها :

ـ أعني ما قلت، أو بالأحرى ما قاله البلبل أن الشجيرة التي طالما انتظر عندها الملك كانت ستزهر في تلك الليلة، وأن حبيبته ريحانه التي من أجلها خرج بحثاً عن الورود كانت قد غابت عن الحياة لسنين ...

قالت سارة :

ـ ما أتعس هذا الحظ !

قلت :

ـ لا! لا ليس لك أن تجزعي لقد قبل الملك قضاءه .

وصرت أغني لها شجوا...

فارض بما قسم الإله مسلّما

وأطل وقوفك فما النهاية ههنا

فإذا حظيت بنظرة من بابها

صرت الأسير ودونه مالا يُرى

بعد ما تبين لي مدى تذمر سارة من مصير الملك قلت :

ـ ما سألتني عن الفتاة ذات ثوب الشوك ؟

ذكرت ذلك علها تنشغل بالتفكير في مصير الفتاة بدلاً

من تدبُّرِ قصة الملك والوقوف عندها حسرةً ...
عندئذ سألتني متلهفة :
ـ وماذا حدث لها ؟
فقد زادت مخاوفها بعدما تبينت ما آل إليه الملك .
قلت :
ـ لقد انتظرت تلك الفتاة الحزينة، وطال انتظارها بجوار الملك وعندما سئمت من إزهار شجيرة الورد، استأذنته في الذهاب فأذن لها. ودعها الملك، وحزن لفراقها. أخذت طريقها، علّها تجد لنفسها خلاصا، ومضت ترتعش كفراشة فوق درب العذاب الذي امتد أمامها ليس لها إلا الصبر والتجلد وعند كل مفرق تمنت أن تقابل جلاء لهمها.
انقضت أيام وليال كثيرة وهي هائمة وحدها، وبينما هي على هذا الحال إذا بها تصل إلى ما يبدو أنه بئر قديم، اقتربت منه، فرأت أن حبلا كان ملقى على حافته قد اختفى آخره في عتمة الجب . لا تدري ما الذي دعاها للأخذ به وجره فظهر لها في نهايته عقد واسطته فص من البلور المنحوت، فكته من الحبل وحاولت أن تضعه حولَ عنقها فلم تستطع، لوجود ثوب الشوك فرأت أن تضعه حول جبينها. فتدلى فص البلور وسط جبهتها... ثم تركت ذلك المكان وسارت في طريقها وبينما هي كذلك إذ

سمعت الزهور تهمهم قائلة :

تشتكي وتقول إنك معدم

والأرض ملكك والسما والأنجم

ولك الحقول وزهرها وأريجها

ونسيمها والبلبل المترنم

أما الفتاة فنظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم، فبدت لها أشعة الشمس كطريد يتحايل، فيراوغ السحب المانعة هربا إلى الأرض .

بينما هي كذلك إذا بسحابتين تنشقان فيسطع من خلالهما نور باهر انعكس على البلورة التي على جبهتها، والتمع الضوء بشدة، فأخذ ذلك البريق نور عينيها، وفي اللحظة نفسها سقط ثوب الشوك عن جسدها مفتتاً كالرماد... واكتسى جسدها ثوباً رقيقاً معطراً من ورود مورقة نضرة غطى بدنها المتعب برفق ولين .

ابتسمت الفتاة، وأخذت تلمس ثوبها الجديد ولم تلحظ لشدة راحتها عظيم فقدها.

هنا سألتني سارة وقد اغرورقت عيناها حزناً :

ـ ما الذي فعلته عندما أيقنت أنها لم تعد تبصر ؟

أجبتها :

ـ ما الذي كان بإمكانها أن تفعله ؟

... تابعت الفتاة المسير، وهي تتحسس الطريق بقدميها، وإذا بصوت ناي ساحر يصل إليها لم تسمع أرق من أنغامه، تتبعت مصدر الصوت إلى أن وقفت أمام شاب لم يكن باستطاعتها رؤيته، وضع الناي، وأمسك بيدها ثم سألها :

ـ هل أضعت الطريق سيدتي ؟

أجابته الفتاة :

ـ عليك أن تسألني منذ متى؟ الرحمة تكمن في أنني تائهة ولكنني دون ألم أرجوك أكمل عزفك ...

سأل الراعي الفتاة :

ـ ما أغرب الثوب الذي ترتدينه !

أجابته في الحال :

ـ هو ليس بثوبي فكما أن بصري وديعة النور لم يكن لي، فإن هذا الثوب ليس لي قد أُعطيته، ولا بد لي أن أعيده يوماً.

سألها :

ـ إلى من ؟

قالت :

ـ ربما إلى الثرى، حسبت أن الحياة لعب، فعبثت بحياتي تارة و بحياة صديقتي نوران تارة أخرى، الأولى أتت من جهل والثانية من حسد.

هنا همس الراعي بصوت خافت كي لا تسمعه الفتاة : نوران أجمل الأسماء ... ثم طأطأ رأسه أسى .

تابعت الفتاة حديثها :

...كانت صديقتي عاشقة ... وكان حبيبها راعياً يجوب الأرض حراً طليقاً، مثل زهور برية باسمة، تنبت حيث تلقي الرياح بذورها. عبر الأرض يسير وهو يتغنى بمحبوبته شعراً يردده صدى الوادي. كان لصديقتي سبعة إخوة غيارى، وصديقة حاسدة ...

أخذت الفتاة نفسا عميقاً مؤلماً، قبل أن تكمل ثم قالت :

... ذات يوم أخبرتني نوران أنها سوف تبعث إلى حبيبها بقارورة ملؤها رحيق الورد الخالص، ملفوفة بمنديل قد كتب عليه ...

فجأة قاطع الراعي الفتاة كما تقاطعينني أنت دائما قائلاً :

أغار عليك من ناظري ومني

ومنك ومن مكانك والزمان

ولو أني خبأتك في جفوني

إلى يوم القيامة ما كفاني

أعرف هذه القصة جيداً ...

وأخذ يكمل القصة التي بدأتها الفتاة :

... عندما أخبرت صديقتها الحاسدة إخوتها عن حبهما ـ على الرغم من طهره ـ تأجج غضبهم، فأخذوا الراعي وألقوه في بئر قديم بجوار دارها، وهناك تُرك، وهناك نُسي لسنين ... لم يستطع أن يناديها خوفا عليها، ولكنه صار يسمعها وهي تبكي، فيتصل حزنه بحزنها، وبدت الحياة كبستان مقفر لا ينبت فيه إلا اليأس .

أتى يوم لم يعد يسمع بكاءها . هنا زاد خوفه عليها أن يكون قد أصابها شيء، مضى زمن وزادت أفكاره سواداً وعتمة، حتى تملكة الجزع وأيقن أنه أضاع حبيبته إلى الأبد...

أخرجوه أخيراً من الجب وقيل له :

ـ إنها قد فقدت بصرها من شدة البكاء، وإنها قد أخذت إلى مكان لن يعرفه أبداً ما دام حياً، هنا انقلب الحب في قلبه إلى غضب كاد يفتك به .

هنا أخذت أغني لسارة ...

آمالنا بنيت على وهم المنى

حلم، خيال والزمان مؤمل

فأساسها هش الغبار. دعامها

عمود على متن الهواء محمل

دهشت الفتاة يا سارة عندما عرفت من كان رفيقها الحنون .

ـ أنت ! سألته بلهفة : أنت، الراعي الذي ظلمت ؟

أجابها :

ـ ... نعم أنا هو. ولكنني شفيت من كل ما يعكر صفو القلب شفيت من كل ألم .

هنا سألت الفتاة و أفكارها تتأرجح بين حزن وخجل :

ـ ما الذي سنفعله ؟

قال الراعي :

ـ دعينا نذهب الآن إلى سيدة الظلال فلربما تجدين أنت التي تعيشين بين الظلال دليلاً ينهي غياهب رحلتك .

ومضيا في طريقهما كمن يحمل قلبه مشكاة ينير ظلمة المجهول، مرّا بجبال شاهقة، ونزلا أودية سحيقة، ثم اجتازا

بَرَاري مقفرة بحثا عن سيدة الظلال هذه، وحيث سارا تحدث الناس عن فتاة تترك خلفها حيث تخطو دربا من الورود، تزهو به الربوع من بعدها، أما هي فلم تكن ترى الجمال الذي كان يتبعها حيث تسير...

قالت سارة :

ـ ما أتعس حالها !

أكملت :

ـ ليس هناك حزن عندما يخلق الجمال . أما تفكرين فيمن يكد في بستان، فيبذر ويروي وهو على يقين بأنه لن يرى نماء بذوره في جمال واكتمال، ولعله لايستظل تحت فيء الشجر الذي زرع ، وليس له حتى أن يسعد بتذوق ثمارها. ولربما حصل له كل ذلك ...

ثم غنيت لها بنشوة ...

أما نظرت إلى الأزهار زاهية

أوراقها سحب وجمالها عبق

فاحرص على الحب والأحزان فاتركها

رحمات ربك في الأزهار تأتلق

بعد بحث طال وجدا مكان سيدة الظلال، ودخلا إلى دارها الصغيرة، وإذا بها تجلس أمام نول عظيم ، كانت السيدة مستغرقة في عملها مرتدية ثوباً عظيماً أحمر مشوباً بلون الحناء افترش فكاد يغطي أرض الغرفة بأكملها. وبينما الراعي يفكر في حقيقة هذه السيدة أهي من أرادا ؟ وجدا أنها كانت تنسج بخيط من نور، وخيوط من ظلال، أخذت تحرك أناملها بخفة ومهارة عجيبة، فتخرج نسقاً بديعاً ما أن يتم حتى يتلاشى في الهواء كالدخان . . .

التفتت نحوهما ثم قالت :

ـ ما هو الشيء الملصق بكل شيء، توأم لكل موجود، ولكل مفقود ؟

فكرت الفتاة مليا فيما قالته السيدة ثم أجابتها :

ـ هو النور يا سيدة !

قالت سيدة الظلال :

ـ بالنور ملصق وما هو بالنور .

أردفت الفتاة :

ـ هو الهواء يا سيدة !

أجابت السيدة :

ـ بالهواء ملصق وما هو بهواء .

ـ هو الزمن يا سيدة !

ـ بالزمن ملصق وما هو بالزمن .

ـ القدر يا سيدة .

ـ بالقدر ملصق وما هو بالقدر.

حاولت الفتاة مرارا حل الأحجية دون جدوى، فلم تصب جواباً، فقال لها الراعي :

ـ دعينا من هذا الآن . إن لم تساعدنا سيدة الظلال، فلا بد لنا من البحث عن سيدة الأصوات، وهي التي تسكن طرف الصحراء لعلها تبدي نفسها لنا ...

هنا سألتُ سارة فقد طال صمتها :

ـ ما بالك صامتة لا تقاطعينني يا سارة أين أسئلتك الصائبة ؟

أجابتني وهي تحاول إخفاء رغبتها الشديدة في معرفة ماذا سيحدث بعد :

ـ لقد قررت أن أستمع إلى قصتك كما نصحت، منتظرة أن تبدى ما بها من جمال وأسرار، دون أن أنهكها في قبضة عجلة متفحصة .

قلت باسمة :

ـ آه ! إذاً التحدث إليك ليس مثل من يخط في السحاب، وعدت أكمل قصتي ...

سار الراعي والفتاة حتى وصلا إلى مفازة شاسعة ظهرت كبحر من الرمال، امتد أمامهما ، وأخذت الشمس تغيب مثل دمعة عظيمة صبغت الصحراء بلون ذهبي عتيق.

جعلت الكثبان من حولهما ترتفع ثم تنخفض مظهرة هياكل صخرية عظيمة تبرز تارة ثم تختفي أخرى . كان منظراً أخاذاً. أبصر الراعي تلك الصور الهارية، فبدت وكأن البيداء تداعبهما. حاول الراعي الوصول إلى تلك الرسوم التي ماجت من حولها الصحراء، وهي ساكنة كالطود فلم يقدر.

وما أن سئم من ذلك حتى لمح سيدة الأصوات، وهي تسير بين هذه الأشكال الهائلة في شغل شاغل، اقترب منها فوجد نفسه بين آبار دائرية شاسعة قد نحتت فيها معارج فسيحة كانت السيدة تهبط ثم تصعد فيها.

أشارت سيدة الأصوات إليهما أن يتبعاها وهي تنزل إلى إحدى الآبار وقد كان البئر أعظم الآبار. وبينما هما هناك إذ بهما يسمعان صوت عواصف مفزعة خارجة من جوف البئر، وقفا و لم يتبعاها، وبقيا عند طرف البئر تحسباً، ثم تنبها إلى أصوات نسائم الربيع الرقيقة تخرج هي الأخرى من جوف البئر ذاته، تلاها صوت هطول أمطار، وأصوات الرعود، ثم صوت أمواج بحيرات تدق برفق على شواطئها، ثم صوت انهمار ماء من شلالات جبلية فانسياب جداول لطاف، فأمواج تتكسر بعنف فوق وجه بحار هائجة، ثم سمعا حفيف الأشجار، وصوت شق النبات للأرض، ونماء العشب، وتفتق البذور، وتفتح الأزهار، حتى سير المجرات في أفلاكها سمعاها وتجاذب الكواكب وتحاور الأنجم ... وكل أصوات الطبيعة. وكانت هناك آبار قد حوت منطق الطير، والوحش، والسمك، والحشرات، حتى الصخور والأحجار سمعا لها وقعاً خفياً ...

بعدها أخذتهما سيدة الأصوات إلى آبار أصغر، ولكن أعمق تحمل أصوات البشر منذ بدء الخليقة، تنبع تحتها أنهار من الكلمات السرمدية، التي كانت تجري تحت هذه الأرض كلها، أخيراً أدخلتهما سيدة الأصوات إلى غار عظيم على جانبي مدخله هيكلان لسلاحف حجرية

كبيرة...

قالت السيدة :

ـ هنا، يكون بئر الصمت. صمت العوالم والأكوان، صمت كل ما لا يمكن أن يقال، صمت الكلمات التي لم تلفظ والأسرار التي لم تسمع، صمت تعارف القلوب وتحاور الألباب ، في بعض الأحيان توجد في أنغام الصمت حقائق يعجز أي صوت عن حملها.

هنا سألتنا سيدة الأصوات :

ـ هل تعرفان قصة الرجل العجوز الذي أحب الصمت ؟

نظر الراعي إلى سيدة الأصوات، فوجدها تضع عمامة سوداء وزرقاء لفت رأسها بها، ومن حول خصرها كان نطاق لم ير له مثيلا صنع من سحب متغيرة الألوان، من أزرق إلى أخضر، ومن ذهبي إلى فضي، وأحياناً يصير بألوان الشفق، وأحيانا بلون الليل يتلألأ من حولها وهكذا...

خلعت السيدة نطاقها الغريب، ووضعته بين كفيها حتى بدا متكوراً، ثم أسقطته في البئر، فافترش مثل بيت العنكبوت أمسكت بطرفه وأخذت تسحب خيطاً من خيوطه فأخرج ذلك الشبك الرقيق صوتاً كان مختبئاً في ظلمة البئر ثم سألت السيدة :

ـ هل تسمعانه وهو يغني ؟

أجاب الراعي والفتاة :

ـ نسمع من ؟

قالت :

ـ الرجل العجوز الذي أحب الصمت .

سألت الفتاة :

ـ ما باله يغني إذا ؟

قالت السيدة :

ـ أحيانا قد نتودد إلى ما يخيفنا ظنًّا منا أننا نمنع أذاه .

وبدأت سيدة الأصوات قصتها :

... عاش في مكان غاب عنه الزمان، رجل أحب الصمت . كان ذلك الرجل يجلس، ليرقب نسمات الصحراء وهي تحمل حبات التراب، فتقفز الواحدة تلو الأخرى في رقصة خافتة رقيقة تبدو فيها وكأن الفلاة كلها أخذت تهتز لنغم النسيم المار فوق فضائها، بيد أنها رقصة صامت . اعتاد العجور النظر إلى تحرك الصحراء وهو ساكن صامت . ترك كل شيء هذا الرجل وكل الناس، وأقسم أن يغلق أبواب التعلق كلها .

عهدا لا بد للحياة من نقضه .

أشد ما يكره هم البشر أنفسهم، فقد ترك الحب والفقدان والشوق منذ زمن بعيد، كما أنه مقت تلك

الأشـجـار المورقـة بحـفـيـفـهـا الزائد المزعج، التى تهـتـز بخضرتها، وتزهو بنضرتها متغطرسة في علو واستقامة .

أما الأشجار التي تحيط به في صحرائه فهي منحنية الجذوع ، معوجة الأغصان، تحرقها الشمس، أوراقها أشواك، وجذورها دائمة البحث لتلقط قطرات الحياة، مبدية قبحها لخالقها وكأنها تقول :

" غفرانك ربيّ يشفع لهذا النقصان صدق خضوعي".

قال العجوز: " أنا صخر !" أسعدته تلك الفكرة التي أحس فيها بقوته . ابتسم عندما تأمل الحصى الذي كان يراه متناثرا في الأودية الجدباء، وخطر في نفسه : ما هي إلا دموع منسية . أما الجبال فلربما كانت أصداء لأحزان جمدت فوق وجه الأرض .

ذات يوم نظر الرجل العجوز إلى السماء، فرأى صقراً محلقاً فيها، وقد أخذ يرسم درباً ساحراً، طلقاً في روعة طيران حر. جعل العجوز يتبع هذا الصقر كل يوم في عليائه. ثم صار يغنّي ويغني ويغني نشوة بصوت كهل متعب غير مبال، والطير المحلق يسبح بين سحب وأنوار بخفة وجمال، يدور ويدور في حسن يتلاشى من خلفه حسن . . .

فكأنما لحظة الجمال، التي سبقت أختها تذوي أبديا،

فتفسح الطريق لبهجة جديدة خالصة وتامة .

أحس الرجل بسعادة، وهو ينظر إلى صديقه البعيد، وصار ينتظره كل يوم ... مضت سنون تذكر العجوز الطائر وحزن ...

هنا أنهت سيدة الأصوات قصتها، هزت رأسها وقالت :

ـ لابد لكما أن تذهبا الآن احمدا الله على صحبتكما.

شكرها الراعي والفتاة، وذهبا دون أن يكونا قد فهما ما الذي قصدته هذه السيدة الطيبة بقصة الرجل العجوز الذي أحب الصمت .

قاطعتني سارة فلم تتمكن من الصمت :

ـ أنا كذلك لم أفهم أنا لا أفهم !

أجبتها :

ـ الحق هو المكان الذي لنا جميعنا أن نسكنه. الصدق ينجيك من التماهي في سجن من الأوهام .

وانطلقت بالغناء...

متى كسبت رضاها لا تفارقها

ودع الرحيل لا تخطو ولا تعد

فالأنس في ساحها يغنى له تبعاً

بعدها تابعت حديثي :

... مضى وقت طويل قبل أن يصل المرتحلان إلى واحة بها أشجار كثيرة . سعدا بهذه الخضرة الريانة بعد طول سير في صحراء مجدبة . دخلا إليها طلباً للراحة من رحلتهما. جلسا بجوار بركة ماء صغيرة ساكنة لامعة، من شدة سكونها ظن الراعي أنه لو لمسها سيتكسر سطحها مثل الزجاج. أخذ طائر صغير يطوف من فوق هذه البركة، يصعد إلى السماء حتى يخفيه البعد، ثم يهوي إليها حتى يكاد يلمس سطحها، ولكنه لا يفعل . وهكذا يرقص مع ظلّه المنعكس على وجه تلك البركة .

تابع الراعي باندهاش لعب الطير مع خياله، وأخذ يصف للفتاة مايراه، عندها اشتاقت الفتاة أن تشارك الراعي فيما لم تتمكن من رؤيته، فمدت أناملها برفق نحو سطح الماء وبرقة الهمسة لمست الماء.

أحدثت تلك اللمسة الخفيفة أمواجاً تكاد لا ترى . زادت الأمواج، فصارت مثل دوائر ارتسمت على سطح البركة، ثم أخذ الماء يضطرب، وكأنه يغلي. اختفى الطائر فجأة، ثم

سمعا صوتا كالرعد يقول :

" لقد أفسدتما سكون مائي، لقد أنهيتما نشوة تحليقي، لن تخرجا من هذه الواحة حتى تحصيا عدد أشجارها جميعا "

تكوم الراعي والفتاة فزعا، عند إحدى أشجار الواحة وبعد أن أعيدت لهما شجاعتهما، قال الراعي :

ـ الآن علينا أن نبدأ بالعد .

وأخذ يعد الشجر حاضر الذهن، كلما انتهى من العد نسي العدد، فيعاود العمل ثانية، وهكذا ثلاثة أيام بلياليها عجز فيها عن تحقيق المراد .

بعدها قال :

ـ حكم علينا بالبقاء هنا. وبدا لهما نعيم الخضرة آنفا سجناً أرادا الهروب منه .

بكت الفتاة وقالت :

ـ أنا سبب ما نحن فيه من كرب .

بعد مضي أيام عدة جعلت تردد :

ـ هذا ما جنت يداي ...

قال الراعي :

ـ هذه ليست جنايتك وإنما قدرنا .

في تلك الليلة نامت الفتاة، ورأت فيما يرى النائم سيدة الظلال وهي تقول :

ـ أيها السذج أما تعرفون كيف تلعبون لعبة الظلال ؟ كم من مرة عددتما شجرها، أما كان الأحرى بكم أن تخطوا خارج هذه الواحة، ولا يعجزكما الخوف ...

ثم أضافت :

ـ لم تجيبا بعد؛ ما هو الشيء الملصق بكل شيء توأم لكل موجود ولكل مفقود ؟

أفاقت الفتاة، وروت للراعي حلمها، فقال لها أن تبقى في مكانها، وخرج وهو يخطو بترقب وحذر من المكان، ثم رجع إليها مسرعا، وهو يقول :

ـ لقد كانت سيدة الظلال على حق أعماني الخوف .

هنا انطلقت أغني لسارة ...

مرت سنون وقلبي باحث عنها

لم يعرف القلب في طياته الكنز

بعدها وصلا إلى نهر واسع ليس بعميق، أخذا يسيران في مياهه، ليجتازاه طالبيْن من الله العون، فقد بدا لهما عظيم ضياعهما.. قادهما النهر إلى واد رائع تحيط به جبال شاسعة ينزل منها جداول بلورية من كل مكان مليئة بأسماك ذات ألوان بهيجة . مضيا إلى أن وصلا مكاناً من

الوادي ظهرت فيه أشجار لوز مزهرة، فكأن الماء البلوري وأشجار اللوز المكسوة بياضاً تلمع تحت أشعة الشمس، لترسم وادياً فضياً نقي الهواء صافي الماء.

وقف الراعي لحظات متأملاً منظر الوادي، وإذا بالفتاة تقول :

أتسمع ما أسمع ؟

ـ أجاب :

ـ نعم .

قالت :

ـ اتبعني .

وتبعها إلى حيث علا الصوت فإذا به صوت رَحَىً تطحن شيئا .

صرخ الراعي :

ـ ماهذا ؟

سألت الفتاة بقلق :

ـ ماالذي تراه ؟

أجابها :

ـ أرى قردا ! أعادت الفتاة متعجبة: قرد ؟!

قال :

ـ نعم هو قرد يجلس أمام رحىً عظيمة يحركها ببطء وروية، تحيط به سحب من غبار لامع تصدر عن تلك الرحى، وكأنها آلاف من الأنوار، وتخرج من بين حجري الرحى صواعق صامتة ذات ألوان عديدة .

كان القرد صاحب الرحى جالسا يغني أغنية بطريقة سمجة . . .

إذا ما شئت أن تعرف   تجد في الناس أطوارا

أناس من معادنهم   تجد في الناس احجارا

فمنهم جوهر نادر   يشع التبر أنوارا

*****

تُبقي الرحى نفح الجنان   أو تبقي لمعا من غبار

يغني وهو يدير الرحى بيدين نحيلتين، قد برزت فيهما عظام المفاصل . وبينما هو في عمله إذ قال للراعي :

ـ انظر !

ووضع كمّيةً من الجواهر كانت في قبضتة في الرحى، ثم أضاف وهو يناول الراعي كيساً صغيراً مملوءاً جواهر بكل ألوان الحقيقة والخيال :

ـ خذ هذا إلى صاحب الموازين .

بعدها أكمل طحنه وهو مبتسم .

سألته الفتاة :

ـ ما معنى ما تغنيه ؟

أجاب القرد :

ـ دعيني أسألك أنا كيف ترين نفسك ؟ جوهرة بقلب من نور، أم غباراً لامعاً ؟ أما الأولى فما هي إلا نفحة من أنفاس الفراديس، وأما الثانية فما تكون إلا غثاء يبلى فوق سطح الحياة ... آمال الدنيا أسحق، أحلام الآخرة أطلق ... حدثيني عن أحلامك دعيني أضحك ... فما الأحلام إلا قطرات نور وضاءة تسقط من قلب الشمس، لتبهج أعمارنا المغبرة . خذيني إلى برك أحلامك المتلألئة، لأعرف أي طيف من جمال سيملأ السماء عندما أطلق أشجانك الحبيسة .

هنا سألت الفتاة :

ـ أجبني ماهو الشيء الملصق بكل شيء توأم لكل موجود ومفقود ؟

ضحك القرد وقال ساخراً :

ـ تمتحنينني باسم كل شيء.

ـ الاسم ؟! قال الراعي : اسم كل شيء هو الملصق به وتوأمه .

أعادت الفتاه :

ـ هو الاسم !

بعد فترة من صمت وتأمل قال الراعي :

ـ الآن، علينا أن نبحث عن صاحب الموازين ...

ثم سأل صاحب الرحى :

ـ لو أنك عرّفتنا مكانه ؟

بسط القرد يده ونفخ فيها فخرج من وسط كفه طائر صغير أشار إليه وقال :

اتبعاه ! هو دليلكما إلى صاحب الموازين ...

كان لصاحب الموازين هذا قلعة عظيمة، تدلت منها كل أنواع الموازين والمقاييس المعروفة والمجهولة لبني آدم. بعضها كانت تهزه الريح، فيحدث رنيناً خفيفاً، وبعضها الآخر تأرجح ببطء يميناً ويساراً في إيقاع رتيب، وآخر تدلى بثقل وسكون. كانت القلعة بلا أبواب. أخذ الراعي يبحث عن مدخل لها فلا يجد.

نادى صاحب الموازين فلم يجب، وبينما هما كذلك سمعا صوتا يقول:

- لقد تأخرتما!

ثم انشقت القلعة مثلما يفتح كتاب كبير. وقد كانت القلعة كتاباً عظيماً. هنا نزل صاحب الموازين مسرعاً إليهما، من مدرج بين دفتي القلعة وهو يقول:

- لقد كنت في انتظاركما، أنا صاحب الموازين أنا لا أزن الأشياء فما أنا إلا حافظ للموازين من نسيان الإنسان...

وأكمل يقول :

ـ لقد وجدت للزمن مقياساً وللمدى، ووجدت مقاييس للمشاعر والعواطف، و لِلْلذاتِ و الآلام، وكذا للعرض والعمق، للبعد والقرب، للطول والثقل، للأفكار والأحلام، للرغبات والمخاوف؛ كُلٌّ له مقاييس ... ولكن للأسف لم أجد مقاييس شيئين : الإيمان والحب . هل لكما أن تخبراني لماذا؟ فما فتئت أبحث عنهما منذ أن بدأ زمني ولكن دون جدوى .

أجابت الفتاة :

ـ ربما ليس لهما مقياس . فالحب والإيمان يعرفان، لا يقاسان، ولا يجدهما إلا من صارع الأوان فعرفه فانياً، وكاشف الأمور فصارت للمنتهى جسوراً.

سأل الراعي :

ـ متى وضعت هذه الموازين ؟

قال صاحب الموازين :

ـ الموازين وضعت قبل وقتي، الوقت أيضا له ميزان. كثير أتى قبلي وكثير سيأتي من بعدي ...

ناول الراعي صاحب الموازين الكيس الذي فيه الجواهر وهو يقول :

ـ صاحب الرحى طلب مني أن أعطيك هذا...

عندما رآهما صاحب الموازين هز رأسه كأنه فهم شيئاً ما، ثم قال : اتبعاني إذا... تعالا معي لأريكما بستان الكلمات .

ودخل إلى القلعة مسرعا، ثم وقف أمام باب صغير، وأخرج مفتاحاً ذهبياً فتح الباب ونزل وهو يردد :

- كلمات...كلمات...كلمات...كلمات... تقال، تلفظ، ببساطة، أبجدية الأصوات، التي تحمل آلام وآمال البشرية، لعلكما لا تريانها كما أعرفها، فالكلمات لا تموت عندما تسمع، ثم تنسى بل تحيا سرمدياً في خيرها، أو في غير ذلك...

هز رأسه وأسرع في النزول وهو يكمل :

- إن الله في جلاله ورحمته قد أعطانا الاسم، لنقضي أعمارنا بحثا عن أصواته . نرهف أسماعنا الفانية، كي نلتقط نبرته الأبدية علّنا، نحظى بلحظة فيها تتشنف مسامعنا جماله فنحيا.

عند نهاية المدرج وقفا أمام سرداب في آخره ظهر نور، اجتازا المكان ليجدا أنهما أمام بستان بديع لم يخيل لهما وجود مثله في الأرض، أحاطه ضوء دافئ ذهبي كالعسل الصافي، قد حلى النسمة عبق خلاب . هناك كانت الأشجار غير الأشجار، فكأنما أوراقها من ماء أخضر يموج

بأنوار زمردية كاملة الحسن، تلقي بظلال مختلفة الأطياف. لا تخفي تلك الظلال النور، بل تظهره بألوان وادعة وضاءة، وهناك ظلال فرشت من فوق الأرض كأرق أصناف الحرير، ومنها ما كسا الأرض تحت أكاليل وافرة ذهبية اللون عتيقة بقدم الأشجار نفسها، قديمة بقدر شوق الإنسان أن ينهي غربة روحه .

تحت إحدى هذه الأشجار جلست الفتاة، وكان قد أعيد لها الإبصار منذ أن وطئت قدماها التعبتان أرض هذا البستان، جلست تحت ظلال الشجرة الذهبية، لكي تموت...

بينما هي منتظرة ومتأملة لجمال لم تكن تحسبه في الوجود، نزلت ورقة من السماء، ورقة في روعة جمال الحقيقة تهادت من الجنة إلى حجرها، من شدة حسن تلك الورقة الوحيدة خبا حسن المكان بأسره ذلك الذي لم تتصور له مثيلاً. بأزهاره وأشجاره وظلاله وبدا البستان كظل ظل هذه الورقة .

خطر في نفس الفتاة : أنه ما جدوى البصر إلا ليرى مثل هذا الحسن . لم تتحمل روحها وانطلقت تتبع المسار العطر الذي رسمته الورقة، وهي تنزل من السماء، وبقي جسدها كأنه في سبات مطمئناً منتظراً الأرض أن تعيده إلى

قلبها الآمن ...

فجأة، ملئ الأفق بأنوار براقة جعلت تهوي إلى الأرض مثل مطر ماسي . نظر الراعي حوله بحثا عن الفتاة فوجد أنها لم تكن بجانبه، ثم أبصر تحت الشجرة الذهبية جسدها، وقد غطاها بريق الماس طبقة تلو الأخرى، حتى لم يظهر منها إلا طرف من ثوبها البديع، وما كانت إلا هنيهة حتى غاب عن عينيه ذلك الطرف المزهر الندي، ولم يترك له من زمنها إلا الذكرى ...

هنا جعلت أغني باكية ...

أرخيت رأسي على الأعتاب مرتضياً

حتى كساني غبار عطره ورد

وظللت ملقى غبار الأرض أفرشه

وهو اللحاف وغاب الحب والجسد

امتلأ قلب الراعي حزناً لفراق الفتاة، حزن لأنه لم يقدر أن يودعها.

سمع صاحب الموازين يناديه :

ـ تعال معي الآن، دعنا نزرع ما أتيتماني به .

ودفع بالجوهرة تلو الأخرى في الثرى وهو يقول :

ـ هذه كلمة خيرة، وهذه دعوة طيبة، وهذه حكمة سمعت، وهذه زفرة مشتاق، وهذا أنين تائب . . .

وهكذا والراعي ينظر إليه في صمت . أحيانا كان صاحب الموازين يصف للراعي شكل هذه الأشجار عند اكتمال نمائها وبهائها الدائمين .

بعدها قال صاحب الموازين متحسبا لحزن الراعي :

ـ في بعض الأحيان يا ولدي تكون الكلمات التي لم نستطع نطقها هي أعز الكلام لدينا.. اذهب الآن يا بني وأعلم أن كل شيء يختبئ في الزمن فلا تأمل في مفقود، فتحزن ، ولكن انتظر الزمن حتى يقرضك نعيما بعد زهدك فيه، ويعيرك فضلا أمسيت غنيا عنه اصبر، الزمن يعطيك غناء نفس عن كل شيءٍ سوى مبدعها.

سكت صاحب الموازين فسأله الراعي :

ـ تُرى ما الذي ترغبه أنت ؟

أجاب :

ـ إنك تقلقني بسؤالك هذا يا بني . . .

ثم هز رأسه وأردف ضاحكا :

ـ لعله يكون عدم الاتزان . ولكن الله في لطفه سيمنعني ذلك . . .

ودخل إلى قلعته بخُطى حثيثة وهو يضحك، وانغلقت من خلفه بصوت راعد .

بقي الراعي وحيداً. نادى صاحب الموازين :

ـ وأين لي أن أذهب الآن ؟

لم يسمع لسؤاله جواباً، وأخذ يمشي تاركاً حصن الموازين خلفه، وبينما هو سائر إذا به يسمع صوت صاحب الموازين، وهو ينادي :

لا تخف أيها الشاب، اذهب إلى حيث شئت، فإنك تحمل بين حناياك قلبَ كريمٍ ... أنت اليوم رجل حر.

هنا سكتّ عن الكلام، فسألتني سارة :

ـ لماذا تنتهي قصصك جميعها هكذا، الفتاة ماتت، وللراعي قلب سخي، أنا لا أفهم لماذا لقصصك نهايات حزينة ؟!

أجبتها :

ـ إن قصصي ليست بحزينة ... وليس لها نهايات .

هناك أزهار جميلة تحمل ضمنا هذا الجمال ووعوداً للفاكهة، إنك تتأملين رقة زهرة الخوخ، فيسعدك بهاء زهرتها باديء ذي بدء، ثم تتطلع نفسك إلى فاكهتها التي ستتبع إزهارها، تتعلمين كيف تنتشين لجمال الزهرة أولا، وتباعاً يأتيك غاية غرس نواجذك الطامعة في لحم

فاكهتها...

وهناك زهور مثل الورود تحيا في جمال خالص ليس به تدرج للشهوات، ولا تحمل ضمن وعودها أي غذاء يمضغ .

هنا لمحت نظرة استخفاف في عين سارة حين سألتني :

ـ تعنين أن الورود أعلى قدرا من الزهور؟

ـ بالطبع ! أجبتها، أما سمعت بمقولة الخليفة المتوكل الذي عرف حقيقة الورود، أمر بألا يبصر جمال الورود من كان ساقط المروءة، فليس لنفس وضيعة وقلب شحيح الحقُّ في التطلع إلى جمال الورود، تلك النفس التي ألفت الخداع والكذب، وذلك القلب الذي ينهك خيرات الحياة دون شكر ولا رحمة .

وتابعت قائلة :

ـ الآن حيث إنك تأملين بالنهايات، سأمضي في قصتي، كما مضى الراعي حتى وصل إلى مكان شاسع ممتد ومنبسط، بينما هو ينظر إلى استواء تلك الأرض تناهى إلى سمعه أصوات كأنها رعد أتاه من الأفق، كان يغشى هذه الأرض ضباب كثيف، ومن خلال هذا الضباب تبين له مقاطع من خيل أخذت تنطلق عدوا هنا وهناك تعبر الفلاة . كان بإمكانه أن يلمح أجزاءً من ألقِها الأخاذ كلهب ينبعث وسط ساحة من دخان...

غمره منظر انطلاق الخيول حتى أخذت روحه التعبة تنتشي، فتمنى لو أن محبوبته بجانبه تشاركه فتنة هذه اللحظة .

بينما هو في تأمل وتفكير إذ فاجأه صوت راعه، نظر وإذا بفرس لونها بلون الشفق تقف جواره . أرخت رأسها وألقت بغرتها فوق الأرض . اقترب منها الراعي وجعل يمسد رأسها العظيمة فوجد أن هناك طوقاً حول عنقها، علق فيه حرز فضي أخذه ... عندها اعتدلت الفرس وانطلقت لتختفي في الأفق .

فتح الراعي الحرز فوجد وريقة قد كتبت عليها هذه الكلمات :

" عليك أن تحصل على عبق القمر وعبير الإبصار".

هنا سألتني سارة بتعجب :

ـ عطر القمر ؟ ماهو هذا العطر ؟ هذا مستحيل !!

أجبتها :

ـ ماكان بالأمس مستحيلا أصبح اليوم لازما ...

ولتعرفي ما هو عبق القمر وعبير الإبصار لا بد لك أن تسمعي قصة كهل الغار...

وتابعت :

ـ سار الراعي بينما الشمس في غروب، وقبل أن تمس أول

رجفة برد للّيل جسده، جلس على الأرض متحسباً لتعبه وإذا به يبصر من عل رجلا عجوزاً. واقفاً يغني بصوت رخيم قوي ملأ صدى صوته كهفاً كان على مقربة منه .

صعد الراعي مسرعا إليه فوجده عند مدخل ذلك الكهف العظيم، ينير شموعاً قد ملأت هذا الكهف، فكأنه أخذ يصب النور من شمعة كان يحملها في يده إلى أخرى وهكذا امتدت تلك الشموع بغير نهاية داخل الكهف. وتحركت ظلالها على جداره بروية وخفة جعل الراعي يرقب العجوز في صمت .

التفت نحوه الرجل وقال :

ـ مافتئت تذكرك يابني ! إنها تحسب أن الشمس لا تشرق إلا لتلقي بنورها على وجهك ! ثم تابع : استمع لحديثي ولا تتكلم . فعندما أشعل شموعي هذه لا يصح إلا لصوت واحد أن يتكلم، فلا يحرك ظلال أنوارها الراقصة إلا نفس واحد. وإن تحاور اثنان عم الاضطراب جدار كهفي باختلاف إيقاع الهواء عليه ...

بدأت القصة عندما ابتسم أول يوم ربيع على الأرض، وبعثت الشمس بأول أشعة لها، فلمست سطح بحيرة جليلة كانت تسكن فوق قمة جبل أخضر عظيم ...

... كانت البحيرة وادعة ينعكس على سطحها الهادئ

كل مـا يحـيط بهـا من جـمـال وحسن، وعـنـد الليـل كـانت النجوم تلتمع على وجهها وتتحرك .

ولد أول نور للقـمر فـي السمـاء، فانـعـكس ضوءه عـلى وجه البـحيرة أيضـا، وبدا سناه يكتـمل كدائرة حسن تـامة حتى كسا تمامـه لألأة النجوم المتناثرة . هنا تملكه غرام البحيرة . البحيـرة أسكنت ضوء القمر في قلبهـا ولليلة واحدة فقـد يكتـمل القـمـر، وينعكس وحـده في دعـة واطمـئنان على البـحيرة ليـصبح قـلبهـا، وينتشر نبضـه الوضـاء ليـرتعش لامعـا على سطحهـا في سعـادة تامـة ... وقبل أن يمحو الفجر وجـه الحبيب عن سطحهـا يبكي القمر، فتـنزل دموعُهُ طيبة شذية كأنها حبات نور معطرة ...

هذا هو عبق القمر وعبير الإبصار ...

أنهى الشيخ القصة وخرج من الكهف فسأله الراعي :

ـ وأين يوجد هذا العطر ؟

ـ هناك ...! وأشار الرجل إلى سلسلة من الجبال الشاهقة.

نظر الراعي نحوها ثم قال :

ـ وكيف لي أن أصل إلى معشوقة القمر ؟

أجاب الرجل :

ـ ستأخذك إليـها إحدى خيلي هذه .

هنا سأل الراعي شيخ الغار :

ـ ولماذا تساعدني ؟

أجابه الشيخ :

ـ لأن كل شمعة رأيتها في كهفي هذا تحترق لقلب يحمل حباً من طرف واحد . فكما أن الشوق لا يقتل الحب، فالنار لا تنهي الشمعة، الحب هنا ما هو إلا ذكرى لشيء لم تعشه وقد يكون أهم من كل الحياة ماضيها ومستقبلها ، وذلك لأنه يحيا حاضراً في أحلامك يا ولدي وفي كل ما تعمل، محفوظاً خلف حاجز من المستحيل، باقياً يجوب ساحات الأمل، دائم الحسن تام المعاني .

أما قصتك أنت فهي مختلفة، أنت لست كاللهب المضيئة في كهفي هذا التي ترقص على صوت شذي واحد . . .

بعد قراءة هذه الكلمات، وضعت الكتاب من يدي. وجعلت أتأمل ما قرأت، ثم أخذت أردد :

" صوت شذي واحد ... صوت شذي واحد ..."

عندها سمعت صوتاً ما كان بالشجي الذي ملأ خيالي . ذاك كان صوت مراد صديقي الذي غاب في عالم الأحلام، بينما غبت في عوالم الوردة الغناء .

أفاق مراد ونادى :

ـ أين أنت يا فارس ؟

أجبته :

ـ هنا يا أخي حيث تركتني، وذهبت لمهد نومك .

قال :

ـ حقا ما أحسن النوم في حجرة عطرة .

بينما هو يحادثني خطر في نفسي، إنه ما ألطف هذه القصة لا بد لي من إكمالها ... شاورت نفسي ودبرت تدبيراً أعوج، فخبأتها في ردائي، ولم أخبر مرادا بأمرها خوفاً من أن يمنعني أنسها. وقلت أعيدها غدا . دون أن أعرف ماذا يأتي به الغد ...

التفت نحوي وسألني :

ـ أوجدت المفتاح ؟

هززت رأسي. قال مراد :

ـ إذاً يبقى الطير حبيساً. إلى ما شاء الله فعنده جل وعلا فك الرهان وهداية الحيران ... وخرجنا من حجرة سُليَّى .

في تلك الليله نفسها دخلت إلى حجرتي، وقد بدت أضيق مما كانت عليه بعد زيارتي لمكان سُليًّى الفاتن .

وبينما أنا أرتب متاعي استعداداً لقضاء ليلة سمر مع كتابي المسروق سمعت من ينادي ! لم أتمكن من فهم النداء، فخرجت من الغرفه صوب ظهر السفينة، وأنا أسرع الخطى، فأحسست وكأن شيئاً سقط على رأسي، ووقعت مغشياً

عليَّ . عندما عاد إليَّ صوابي وجدتني يحيط بي جمع من الأجلاف، يحملقون فيَّ النظر. راعني ما رأيت، وقلت لعله حلم ؟ وبعد لحظة أفيق ! تبين لي إنه ليس بحلم، وقمت لا تحملني رجلاي ثم سقطت .

سحبني أحدهم من قفاي، ثم جرني جراً من قميصي، وصار يوقفني ثم يقعدني، وأنا عاجز عن دفع الهوان عن نفسي .

قال الوغد :

ـ أريد هذا !

هنا تملكني الغيظ وعمدت إلى فعل من راهن بعمره، فسحبت طرف قميصي من قبضته بغلظة، ثم نفضت كتفي من إهانته ، وقلت محقراً له :

ـ من تكون يا أخا الصفاقة والحمق وقلة الأدب !؟ ومن أخبرك إنني ممن يسحب ويجر أو يؤخذ ويعطى ؟!

لم يلتفت إلي وأعاد على مراد :

ـ ما قولك ؟

أجابه مراد غير آبه :

ـ خذه !

عندها التفت نحو مراد وصرخت :

ـ خسئت ! أهكذا يفعل بصديق !

جذبني وغد آخر وأنا أردد : لا حول ولا قوة إلا بالله ! وخلع عني ردائي الذي كنت ألبس . أعطاه لرئيسه الذي لبسه، وجعل يتبختر فيه . فيبدو أن ما استحسنوه مني كان الرداء . أفلتوني بعدها وعادوا إلى سفينة عظيمة كانت بجوارنا .

هنا تذكرت ما كان في جيب الرداء، وصرت أصرخ : الرداء ! الرداء ! ويسحبني مراد وهو يقول :

ما بك يا رجل ؟ أشكر ربك أنك حي. والرداء دعه وأمره !

لم أقدر أن أفصح له عن سبب هلعي، فقد استحييت أن أذكر له ما فعلت من أخذ الكتاب خلسة، فدفعت بنفسي نحو المركب، وأوشكت على السقوط في البحر لولا جرُّ أحدهم لي وهو يقول : لقد خالط عقله الخرف .

فصار القراصنة يضحكون وغابت سفينتهم عن عيني، وزاد أسفي على ردائي، ومراد متعجب لحالي يقول :

ـ حسبتك والله، أعقل من هذا يا فارس تغاث من كيد القراصنة بفضل من الله ثم تصنع ما صنعت !

قلت له :

ـ اسكت يا مراد، وإلا دفعت بنفسي في البحر.

أردف رفيقي :

ـ سبحان الله ! كل هذا من أجل رداء وقد أعطيت الحياة .

عرفت أن القراصنة قد تركونا سالمين لسببين : أحدهما أنّ ما بدا لهم من حال السفينة أزهدهم فيها، وهم لم يلجوا إلى غرفة سُلَيَّى، ثم إن مراداً عرف كبيرهم -ذلك الوغد الذي أعجبه ردائي- كان يبيع أمه اللبن في قريتهم، وقد أحسنت إليه . صدق من قال صلاح الآباء تدركه الأبناء.

سألت مراداً :

ـ وإين ترسو سفن القراصنة ؟

ضحك مراد وقال :

ـ أوتتبع الرداء ؟!

أجبته :

ـ نعم أفعل !

طلبت من مراد أن ينزلني حيث يكون القراصنة، قال : بالله عليك كيف لي أن أعرف ذلك ؟! بل أذهب بك إلى مكان يباع في أسواقه غنائمهم .

قلت : جزاك الله خيراً . نعم الأخ أنت .

بعد مدة رست سفينتنا في ميناء صغير، ودعت مرادا و لم أسأل بالطبع عن سُلَيًّى لأودعها، بكى مراد لفراقي .

قلت له :

ـ علام تبكي ؟ نلتقي إن شاء الله .

فلم يعرف مراد أنني كنت عازماً على إرجاع كتاب

سُليَّى إلى المكان الذي أخذته منه، أجابني مراد :

ـ تتبع رداء إلى الهلاك ولا أبكي عليك يا صديقي .

تركته وتوجهت إلى المدينة دخلتها ، وقد بدت تعج بالحياة وقفت عند دكان صائغ . سلمت وسألته :

ـ هل بالمدينة خان ؟

قال :

ـ نعم، آخذك إليه .

قام الرجل وقد كان رجلاً دقيق الأطراف، سريع المشي كثير الالتفات يميناً ويساراً. تبعته حتى وصلنا آخر السوق وبجوار المسجد بدا باب جميل فتحه الصائغ ونادى :

"يا علي ضيف ! يا علي ضيف !"

نزل إلينا شاب قال : مرحبا يا عم ... التفت لأشكر الرجل، فوجدت أنه خرج وتركني دون أن أقدر على شكره.

نزلت في خان صغير أنيق غطى جدرانه زهر الياسمين، ومن فوق بهوه افترشت عريشة لطيفة من عنب، صرت أصلي في المسجد بجواره .

كل ما كان في المدينة على صغرها يشير إلى ثراء أهلها ، فكرت في الذهاب إلى الصائغ، فاشتريت قارورة طيب وضعتها في كيس قد طرز بخيوط من الذهب هدية له، ومضيت إلى حيث قابلته في السوق، وجدت الرجل

نفسه وقد لبس ثوباً أحمر وجبة حمراء، ولف رأسه بعمامة حمراء منقوشة أسدلت أطرافها فوق كتفه، وكادت تصل إلى خصره، وكل ذلك من أحسن القماش .

سلمت وقلت :

ـ يا رجل إنك تركتني قبل أن أشكرك !

قال :

ـ عذراً يا هذا ولكن أردت الإسراع في العودة إلى دكاني .

ثم دعاني للجلوس معه وأتى لي بالشراب والطعام وأمضيت النهار في دكانه أسأله عن المدينة وأهلها، لعله يخبرني بشيءٍ أصل به إلى ردائي .

بعد زمن سألته اين تباع الألبسه ؟ أجاب :

ـ مثل ماذا ؟

قلت :

ـ مثل رداء، ولكنني لاأريده جديداً.

نظر إلي وأعاد باستغراب :

ـ تطلب رداءً قديماً ؟

قلت :

ـ نعم، نعم رداء ... فلا ضير أن كان من قبل لغيري ذلك يكون آنَسَ لي .

هنا ضحكت ولم يضحك الصائغ أجاب :

ـ لا أدري .

قلت :

ـ وماذا عن الكتب ؟

قال :

ـ تجدها في دكان الوراق سالم بعد السوق الصيني .

أعدت عليه :

ـ وأين أجد ما يلبس ؟

وقبل أن يجيب إذا بامرأة تقبل علينا يحيط بها غلمان لها وحراس، وهي ملتفة في غطاء لم أر أحسن منه. كانت قد نزلت من عربة صغيرة، تامة الصنع فوقها قبة من الحرير يجرها فرس أبيض، قد تحلى بعلاليق من فضه وزين بالحناء. أتت إلى الصائغ الذي قام لاستقبالها والاحتفاء بها . صارا يتحادثان، ثم أخرجت علبة ذهبية مرصعة بالجواهر، أخذت منها شقاً واحداً لقرط بديع الصنع، سلمته للرجل، تفحصه وأعطاها مالاً. عادت إلى العربة وتبعها الغلمان ثم خرجت من السوق .

نظرت إلى الصائغ وسألته :

ـ من هذه السيدة التي تبيعك قرطا تخرجه من صندوق ثمنه بقدر ما في الدكان كله ؟

لم يجبني الصائغ، فأردفت :

ـ أما أمكنها بيع القرطين معا ؟

أجاب الصائغ :

ـ لا، لا يمكنها .

قلت :

ـ عجباً ولم ؟

قال :

ـ هي قصة ترويها لك صاحبتها إن أرادت .

سألته :

ـ ومتى ستعود ثانية حتى أسألها ؟

قال :

ـ المرأة التي رأيت ليست بصاحبة القرط صاحبة القرط لا تخرج إلى الأسواق .

تعجبت لجوابه، وعرفت أنه لن يقول أكثر مما ذكر .

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى الميناء الذي رسا فيه مركب العطاء، وسرت بين الناس وهم منشغلون أتفقدهم وأتلطف إلى من يحادثني، علني أعرف شيئا يوصلني لجبتي والكتاب .

بينما أنا أمشي وجدت رجلاً عجوزاً جالساً يرقب المارين أمامه والسفن ، سلمت عليه وجلست عنده لا يحادثني ولا أحادثه بعد فترة قال لي :

ـ لقد أخذ البحر ولدي، ترى أيعيده أم ماذا ؟

قلت :

ـ يا عم كيف ذلك ؟ هل مات ؟

قال :

ـ لا بل أُخِذ .

سكت وأردف العجوز :

ـ أُخِذ لأنه أبى أن يفصح عن السر للسيدة .

سألته :

ـ أي سيدة ؟

قال :

ـ التي تسكن السماء .

هنا هززت رأسي و خطر في نفسي: هذا رجل خَرِف !

ثم قام عني ونأى بخطى واهنة . بعدما اختفى عن بصري اشتاطت نار الفضول في كياني، وعدت مسرعاً إلى صديقي الصائغ، فرويت له ما حدث .

ضحك وقال :

ـ هذا سعد الماضي .

سألت :

ـ وماذا عنه ؟

قال الصائغ :

ـ يا فارس ما الذي أتى بك إلى هنا ؟ فلا أرى لك أهلاً تزورهم ولا لك تجارة تبتاعها ؟

أجبته :

ـ جئت أبحث عن مفقود .

سأل :

ـ من البشر ؟

قلت :

ـ لا بل من قماش .

قال :

ـ سبحان الله ! وتظن أن صاحبك العجوز هو الخرف !

قلت :

ـ يا أخي سرق مني شيء !!

قال :

ـ وسارقه يعيش بيننا ؟

أجبت :

ـ لا أعلم .

هز رأسه ثم سألني :

ـ وما حيلتك إذاً ؟

أعدت :

ـ لا أعلم .

قمت عنه وعدت إلى الخان، وقد أثقلني همي فلم أجد في السوق ردائي ولا كتاب سُليًى، وما في المدينة من يدلني عليهما .

عدت في اليوم التالي إلى الميناء بحثا عن سعد فوجدته جالساً في مكانه ينظر إلى البحر أمامه، سلمت عليه

وجلست بجواره، وحاولت التحدث إليه فلم يُجِبْني وبقي متأملاً للبحر.

بعد زمن طال قام العجوز ومضى فتبعته حتى أعرف مكانه، مضى في طريق أخذنا إلى مكان يبعد عن المدينة، هناك ركب عربة سارت به إلى قصر يرتفع عن المدينة، تتبعته حتى وصلت إلى سور من حجر به باب أخضر كبير يقف عنده حارسان، سلمت عليهما وقلت :

ـ هل دخل عندكم سعد الماضي ؟

أجابا :

ـ نعم، لماذا تسأل عنه ؟

قلت :

ـ أريد زيارته .

تعجب الاثنان وقالا :

ـ هذا والله ما حدث منذ عرفناه .

سأل أحدهم :

ـ وما سبب الزيارة ؟

أجبته :

ـ الود عافاك الله ! أويطلب لسبب آخر ؟

قالا:

ـ ما عرفناه طلب لأي شيء ... حتى الود. ابق هنا حتى

نسأل .

جلست وجعلت أتفقد المكان فقد كان الثرى أحمر اللون، يعلوه خضرة أشجار كبيرة أحاطت به، وملأ أريجها الرقيق الهواء النقي، وعم أرجاءه . كان قصراً يرى منه البحر ولا يعلو بكثير عن المدينة وإن بعد . بينما أنا كذلك إذ ناداني أحدهم وقال :

ـ اتبعني !

قلت :

ـ لبيك .

ودخلنا إلى بستان به زرع مختلف الألوان، مليء بأشجار الفواكه .

سألت الرجل :

ـ ما هذا المكان ؟

أجاب الحارس :

ـ هذا قصرالسماء .

مضينا حتى دخلنا إيواناً واسعاً، قال الرجل :

ـ اجلس هنا حتى يأتي من يأخذك إلى سعد .

شكرته ولزمت مكاني حتى غلب علي الفضول، وقمت أتفقد القصر، وقد أسقطت بذلك بعضاً من مروءتي دون أن أبالي . سرت حتى دخلت مجلساً، رأيت من نافذته المطلة

على حديقة غزالة قد أدخلت قرنيها في زروع، ولم تقدر أن تخرجهما ، وصارت تصارع الأغصان دون جدوى . نزلت من النافذة وسرت إليها ، وجعلت أعاونها على الفكاك حتى أخرجت قرنيها فانطلقت، نظرت حولي فوجدتني في بستان أكثر زهوره بنفسجية أشجارها لم تكن مرتفعة كست غصونها زهور، تطوف بها طيور ملونة، يسمع فيه خرير ماء لطيف إينما سرت، ولكن دون أن أعرف له مصدراً.

مضيت أتجول مفتوناً حتى وصلت إلى بناء صغير له ستائر يحركها النسيم، امتدت من أمامه بركة ماء تطفو عليها أزهار بيضاء .

لم أتمكن من رؤية ما بداخل ذلك البناء الجميل، بعد هنيهة سمعت من تقول :

ـ كيف دخلت إلى هنا يا رجل ؟

تلعثمت بالرد ثم قلت :

ـ ضعت .

أردفت :

ـ بل تطاولت على مضيفك وتجرأت عليه !

قلت :

ـ عذراً فقد قدمت لأرى سعد الماضي ...

قالت :

ـ اقترب .

فعلت كما أرادت بحذر، أتلفَّت حولي وأقول في نفسي الآن يقطع رأسك يا فارس .

قالت :

ـ اجلس . فجلست وبيننا الستار .

تابعت :

ـ لماذا تريد رؤيته ؟

أجبت :

ـ ذكر شيئا شغل فكري .

سألت :

ـ ما هو ؟

أجبتها :

ـ قال إن البحر أخذ ولده !

قالت :

ـ ولم يخبرك لماذا ؟

قلت :

ـ لأنه لم يُفْشِ سرا للسيدة .

هنا سألتها :

ـ أأنت السيدة ؟

لم تجبني وتابعت :

ـ هذا كل ما أتى بك إلى هنا ؟

قلت :

ـ سببٌ يتبع سبب . والله يا سيدة لقد أوصلتني مقادير غريبة إلى بلدتكم هذه الطيبة، لو أردتِ أحكيها لك .

أجابتني :

ـ ما سألتك إلا لأنني أريد أن أعرف ما الذي أوصلك إلى هنا، وإلا قتلتك حرسي، عن قليل تجدهم طالبين لك ...

قد كان كما ذكرت السيدة فما أن أنهت كلامها حتى أقبل الحراس يهرولون، نادت عليهم السيدة : اتركوه ودعوا عصماء تأتيني...

ثم سألت :

ـ أخبرني الآن بقصتك .

حكيت لها كيف خرجت من بلدي وبيتي، وارتحلت حتى ركبت البحر مع مراد. وكيف دخلت إلى حجرة سُلَيَّى وأخذت ذلك الكتاب الذي تبعته إلى هنا.

سألتني :

ـ وما سُلَيَّى ؟

أجبتها :

ـ إنها حسناء تحبس الأحياء .

هنا قالت السيدة :

ـ اعلم يا ولد أنه لا يحبس حي ولا يستعبد حر .

ساءني بأن أوصف بالولد، وجعلت أتدبر صوتها فوجدت فيه حزم من عارك الدنيا، ونشوة من عرف الحياة .

أكملت :

ـ وماذا عن هذا الكتاب الذي ضيعته وضيعك ؟

قلت :

ـ أحكي لك قصته إن أردت فقد نقشت في خاطري .

قالت :

ـ افعل . ولكن ... ما اسمك ؟

أجبتها بأن اسمي "فارس" ومضيت أحكي لها القصة وهي صامتة .

طال صمتها، فظننت أنها نامت أو تركتني .

سألت بعد زمن :

ـ لعل سيدتي ملّت ؟

قالت :

ـ أكمل يا ولد .

أكملت حتى وصلت إلى "صوت شذي واحد.."

وسكت .

سألت :

ـ ما أسكتك ؟

قلت :

ـ أضعت القصة هنا .

أجابت :

ـ لتجدنّها هنا إن شاء الله .

قلت :

ـ كيف ؟

أجابت :

ـ استمع إلى ما أقول . . .

وبدأت السيدة تروي حديث الوردة،كما لو أنها هي القائلة،

. . . بعدما ذكر شيخ الغار للراعي عن شموع كهفه الوضاء أخذ يدور ويغني . . .

كاللّهب الأزرق أحلام في الخاطر تأتي وتعود

ذكراك توجج مخيرها تنتعش فتبرق وتعود

ثم أضاف الشيخ :

ـ لهذا السبب سوف أساعدك . اذهب الآن إلى معشوقة القمر.

امتطى الراعي أحد الجياد، وسار نحو الجبال البعيدة . طال سيره، وأخذ يفكر في كيف له أن يحتفظ بعبق القمر لدى سقوطه إلى الأرض ؟ عندما وصل إلى البحيرة وجدها في سكون تام انبسطت حتى لامست ظلام الليل، وامتدت بغير نهاية في خفاياه . التمعت البحيرة بأنوار بديعة كأنها بريق عيون السعادة . جلس الراعي عند شجرة في انتظار ضياء القمر أن يملأ قلب البحيرة، أحس بأمان ودعة يحيطان به ثم غشياه وملأ كيانه، ثم أخذه النعاس فنام . أفاق بعد سِنَة على سقوط حبات العبير فوق وجهه، فتح الحرز وصار يجمع تلك الحبات المضيئة فيه، ترك الراعي المكان بعدها وسرى ...

هنا قاطعت سارة الوردة متسائلة :

ـ وما الذي حدث لمحبوبته نوران ؟

أجابتها الوردة :

ـ لقد أمضت أيامها وهي تصنع بستانا صامتا من الزهور. صامتاً بقدر سكون عينيها . كانت أناملها تستهدي بقلبها في النسج وعند إتمام أي جزء من السجادة تسير يداها فوقه، فتكاد تشعر بنسائم الحقول وهي تتخللها، وتنتشي لعبير الربوع التي كانت تفوح منها . عندما أنهت السجادة أخرجتها لترى الشمس ...

. .

نظرت سارة إلى الوردة والإعجاب يملأ عينيها وقالت :

ـ إذاً صنعتك نوران !

أجابت الوردة :

ـ نعم نحن إبداعها فكل زفرة ولهى، وكل ضحكة جذلى سمعتها صورنا الصامتة، وكل دمعة غمّى أو عبرة غبطى لمست وجوهنا، وكل فكرة ارتعشت شجيً أو انتشت بشراً لها يد صانعتنا، وكل كلمة عابرة أو جارحة أدركتها أشكالنا الساكنة، جعلتنا نسجا من الآمال والأحزان . وبكل سحبة للنول وردة . حياة كاملة تحصل لدينا، وحكاية فريدة تحفظ فينا.

تعجبت سارة وقالت :

ـ سبحان الله فكل منكم يحمل حياة إنسان في ذاكرة نسجه ... ولكن هل التقى المحبان ؟

ـ بالطبع ! قالت الوردة : بالطبع !

. . .وحين رآها أقبل عليها بتأنٍ وجعل يملأ عينيه منها، ويفكر في جم اشتياقة وقليل اختلاقها، فهي كما عرفها لم تتبدل، أما هو فقد نسج الزمان في رأسه بياضا، رنا إليها بنظرة أكثر ثباتا ورقة . أتاها وقد أخرج الحرز الذي به دموع القمر، ومسح العطر برفق على جبهتها . رفعت عينيها، ونظرت إليه ثم ابتسمت واضعة رأسها على

كتفه .

سألت سارة :

ـ وما الذي قاله ؟

أجابتها الوردة :

ـ آه يا سارة ! أما هو فبقى صامتا كما سأفعل أنا الآن لتختفي كلماته في بئر الصمت .

هل تغنين يا سارة ؟

قالت سارة :

ـ لا .

ـ إذاً عندما نلتقي ثانية سوف أعلمك كيف تُغنّين مثل الورود .

وأخذت أغني ...

ابحث عن العقل نعم الكنز تحفظه

معطمئن عارف لحياضه يرد

فاسخر كما حافظ منها وزينتها

ومن وضيع فلا تطلب له حمد

جواهر الكون والدنيا بأجمعها

سكتت السيدة، فقلت باندهاش شديد :

ـ يا سيدتي تعرفين القصة !؟

أجابت :

ـ وكيف لا أعرف قصة أبويّ .

لم أقدر على الكلام، وسمعت السيدة تقول :

ـ يا عصماء أدخلي الغريب إلي .

تملكني الهلع فقد ألفت صوتها وكفاني ما حدثتني به، فهذب من فضولي . أزاحت عصماء الستارة، وقمت إليها وأنا غاض لبصري دخلت العريشة البديعة، وكانت السيدة على سرير يمكنها من خلاله تأمل بستانها وبركتها اللامعة، يحيط بها زهور قد وضعت في أوعية من البلور المنحوت، يسمع في المكان نوح الحمام وصوت لعب النسيم مع الستار.

قالت :

ـ يا عصماء قولي لسعد أريده أن يحادثني .

ثم التفتت نحوى وأردفت :

ـ يا فارس تريد أن تعرف قصة أخرى ؟

رفعت رأسي لأراها على أحسن ما تكون عليه النساء في الدنيا، ولعلها كانت في شبابها أجمل من الحور بل جزماً قد كانت، عيناها ليلكية، ومبسمها شفاء كأنه وردة ندية، وثناياها كحبات اللؤلؤ المرصوص، لفت رأسها بطرحة زرقاء وتدلت فوق كتفها ضفيرة وافرة في بياض الثلج، لامست خصرها المائس النحيل . قلت في نفسي :

"عجيب يا فارس ما رأيت لهذه المرأة مثيلاً في دنياك ".

لعل الله يصيبك بابنتها في الجنة، ودعوت الله مخلصا .

أعادت السيدة :

ـ سألتك يا ولد هل تريدني أن أحكي لك قصة أخرى ؟ ... قصة سعد الماضي ؟

استحييت من نفسي فقد بدا جلياً أنني كنت مأخوذاً بحسنها، وقد كانت من النساء اللواتي اعتدن على ذلك .

قلت :

ـ أنا رهن كرم السيدة .

قالت :

ـ يا فارس إن سعد الماضي يخرج في كل يوم ويبقى منتظراً يرقب البحر، فلعل الزمان يرجع ولده، سعد لم يكن له ولد. إن قلت له يا سعد ليس لك ولد . قال : كان لا بد أن يكون لي ولد، لكنْ أخذه البحر.

سألتها :

ـ وما السر الذي لم يفصح عنه ولده المتوهم .

قالت :

ـ سعد يحسب أن السر لم تعرفه السيدة ويظن أنه لو أخبرها به لكان اختلف الحال .

سألتها :

ـ أنت السيدة التي تسكن السماء ؟

قالت :

ـ ليس بعد ولكن عن قريب إن شاء الله ... ثم أكملت : سعد الماضي هذا الذي رأيت، وأسكنه عندي، كان قائماً على خيل زوجي، وقد أحبني منذ أن كان فتى لا يفصح لأحد عن عشقه حتى أخذت الأيام عقله من طول الكتمان وجن . ذلك حدث منذ زمن، وحبه هو السر الذي لم يفشه ولده لي، فأخذه البحر. فهو ينتظره أن يعود كالصوت الذي يطلب الصدى .

ثم سألتني بعد أن أنهت قصة سعد :

ـ أتسمع ؟

أرهفت السمع، فوقع في أذني صوت ناي أتانا من بعيد كله شجى. كالصوت الذي ترقص له الشموع في غار الشيخ .

قلت للسيدة :

ـ ما أحسنه .

قالت :

ـ هذا سعد يحاورني فإنه لا يطيق أن يحادثني بالكلمات، لأنه يعرف أنني سوف أموت ...

قلت بانزعاج :

ـ أطال الله عمرك وأبقى عافيتك !

قالت :

ـ هم أخبروني أنه لن ينقضي الشهر حتى ينتهي زمن دنياي ... أتريد يا ولد أن تعرف قصة أخرى ؟

دون أن أعي ما أقول فقد أحزنني أنين سعد وفراق مثلها للدنيا ولا أدري لماذا ؟! أجبتها :

ـ أجل .

ابتسمت ثم سألت :

ـ ما بالك حزيناً يا ولد ؟

أجبت :

ـ لا أريد أن تموتي .

قالت :

ـ عجيب ! لقد عمرت أكثر من تسعة عقود ...

أردت الخروج من حديث موتها فسألتها :

ـ هل يعرف سعد أنك علمت بحبه ؟

هزت رأسها بأن لا...

سألت :

ـ لم ؟

قالت :

ـ تريد للبحر أن يقتل ولده ؟

سألتها :

ـ ليس له ولد أنت قلت ذلك !

قالت :

ـ نعم ولكن هو يظن أنه لو أفصح لي عن السر يوماً لربما اختلف الأمر، وولده هو أمله الذي لو عاد وأخبرني السر تكون أشياء أعرف أنا أنها لن تكون .

قلت :

ـ أتحبينه أنت ؟

قالت :

ـ ليس هو دون غيره، اسمع يا ولد لقد أحبني كثير ممن يمكنهم الإفصاح، وكثيرون ممن لم يقدروا على ذلك . أما أنا فما وسعتني حياتهم، وما كان لي أن أحيا إلا في عقولهم .

الأمر كما قلت لك :

ـ الحي لا يحبس، والحر لا يستعبد، تعرف يا فارس أن كل عضو لك يمكنه أن يستعبد بل هو حبيس حتى تطلقه، والعاقل من البشر من يمضى عمره في تحريرهم، أما لو أنك تمكنت من القلب، لانفكت باقي الأعضاء تباعا، فترى وقتها بعين الحر، وتمشي برجل الهميم، وتصافح براحة الكريم وتتكلم بلسان العليم، وتتشنف أنغام المنتهى، وتنتشي عطور السكينة، وتكون لك مذاقات الخير كلها . أيشغلني غير هذا ؟

سألتها :

ـ وماذا عن القصة يا سيدة ؟

قالت :

ـ أريد أن أعرفك ما حدث لابنة نوران .

قلت :

ـ سبحان من جمعنا يا ابنة نوران .

قالت :

ـ يا فارس أعلم بأن كل شيءٍ حدث مسطور، ولا يفوت المقدور دون أن نلاقيه، وإن كنا لا نعيه . احذر أن تكون كَشَرَنْبَث .

قلت ضاحكا :

ـ وما شرنبث سلمك الله ؟

قالت :

ـ هو الذى دفن كنزه في فلاة، وعلّم موضعه بظل سحابة كان ممتدا عليها، فضل المكان وأضاع الكنز.

ضحكت وقلت :

ـ والله كلنا شرنبث .

بدأت السيدة قصتها وهي تقول :

...كانت حياتي أحسن من الدنيا المقبلة . أنطلق على جوادي فوق جبال خضراء، لا يقدر أن يلحق بي أشد الرجال فروسية أمضي حيث أريد، ثم أعود ليضمني حنايا قلب والديّ . ترافقني صديقات ود وسمر. نلعب في البساتين، ونغني . ليس لنا من هموم الدنيا إلا اللمم . بل أقل من ذلك .

في يوم من الأيام تذكر الحب قلبي، فأحببت وملأت دنيايَ بأشغال لطاف، وآمال عذاب . كان خاطبي رجلاً من أكرم الرجال، قد أعطاه الله من فضله حتى كأنه خلق كما تمنى . وكنت أحسب الأيام أقراني، فألهو معها وأنتظر أياً منها يحملني إليه عروسا .

مرت الأيام كأنها أنفاس حتى أتى الوقت، وجهزت بأحسن ما تجهز به عروس، وسرت في موكب إلى بلدة

زوجي تزفني السعادة والعز ...

وزوجي منتظر لاستقبال حبيبته .

وما كانت إلا ساعة حتى أطبق الشؤم علي، ووجدتني في قبضة سوء، هاجمنا قراصنة واختطفوني ليبيعوني، حسبت أن هذا لا يحصل أبدا لمن يولد حرا وقد حصل .

كنت أدعو الموت ولا يأتي، وأدعو الغوث فلا يجيب، فما أن مددت أناملي لتلقي السعادة حتى دفعتني الأقدار في حفرة الهوان والذل . لم أمت بل عشت، وما كانت إلا أيام قلائل، توالت كأسقام، حتى اشتراني بيك يبدو أن من أخذوني كانوا يعملون له وصار زوجي .

أمضيت عمري معه، وقد أحبني ضعف ما في قلب سعد، أما أنا فما غفرت له أسري وتجارة الدموع التي عمل بها، وحيث إنني قد أخذت وأنا مرتدية ثوب عرسي مجهزة بكل زينتي، وذلك كله لتلقي قدري، بقي لي من مال أهلي قرط كنت ألبسه في ذلك اليوم النكد، لم يخلعه القراصنة عن أذني، طلبت من عصماء أن تبيع أحد شقي القرط ، لأشتري به كفني، فقد أخذت عهدا على نفسي مهما طال عمري في كنف زوجي ألا أزف إلى ربي إلا بطهر مالي...

سألت السيدة :

ـ وماذا عن الشق الآخر للقرط ؟

هنا ابتسمت وقالت :

ـ حقا لا يسأل هذا السؤال إلا رجل مثلك يا فارس . أما الثاني فقد أعطيته لابنتي كي تفعل ما فعلت، ولا تدنس لقاء الملائكة بمال الحرام ...

سكتت السيدة ثم قالت :

ـ يكفيك اليوم ما قصصت .

قلت لها :

ـ جزاك الله كل الخير، تعرفين أنني كنت في حانوت الصائغ عندما أتت عصماء لتبيع قرطك .

هزت رأسها وقالت :

ـ الآن عليك أن تذهب في أمان الله يا ولد .

قلت :

ـ هل يمكنني أن أزور سعد الماضي ؟

قالت :

ـ وماذا تقول له ؟

قلت :

ـ أحادثه وأتودد إليه .

قالت :

ـ لك ذلك واسأله أن يأخذك لسفان الأعرج .

قلت : ومن يكون ؟

قالت :

ـ يخبرك لقاؤه .

نادت عصماء أن تأخذني لسعد، وأضافت : قولي لسعد يدله على مكان سفان .

خرجت من عندها، وأنا ما زلت آسفا أن تغيب مثلها عن الحياة، وإذا بي أسمعها تطلق زفرة ألم . قلت في نفسي: أعيتها الأسقام دون أن يتبدى ذلك لأحد، هون عليها يا الله .

وصلت لسعد، وجلست إليه وما أنْ ذكرت عصماء ما قالته السيدة حتى وثب وهو يقول: تعال يا حبيبي تعال .

وسرت معه إلى مكان داخل القصر، نزلنا منه حتى وصلنا إلى سراديب طويلة، سرنا فيها إلى أن أتينا باب حديد ثقيلاً، طلب مني سعد أن أفتحه صرت أدفعه بكل قوتي فلا ينفتح، وصار يدق الباب العظيم بعصاه وينادي: يا سفان أنا سعد! ، بعد مدة من دفع وزعيق تمكنت من إزاحته قليلا، ومررنا أنا وسعد من بين دفتيه ثم خرجنا منه إلى مكان شاسع غريب، غطته المياه وظهرت فيه أعمدة تنتهي في الماء وتختفي في سقف مظلم بعيد ... نزلنا من سلم صخر كبير إلى الماء قال سعد : لنركب القارب .

وركبنا قاربا صغيراً قد عقل في حلقة حديد ثبتت في الصخر.

وصرت أجدف وأمضي حيث يأمرني سعد، وما كانت إلا دقائق حتى وصلنا إلى مغارة عظيمة يدخل البحر إليها، وبها تختبئ سفن وبشر، يروحون ويجيئون نادى أحدهم :

ـ من معك يا سعد !

أجاب سعد :

ـ هذا بعثته إليك السيدة .

قال الرجل :

ـ ظننت والله أن السيدة لا تبعث إليّ إلا العتاب والسخط ؟

نزلنا من مركبنا وسلمت عليه فقلت :

السلام على سفان ... أتبعت النظرة فإذا هو القرصان الذي أخذ ردائي أمسكت بناصيته، وصرت أصرخ :

ـ هو أنت !هو أنت !

دفعني عن نفسه وقال :

ـ تبعث إلي السيدة بمجنون ؟!

قلت :

ـ بل أعقل منك يا لص أين الرداء ؟

صفن سفان قليلا ثم قال :

ـ أي رداء ؟

قلت له :

ـ أما تذكر ما سرقت يا نذل؟ اسألني إذا، أيهم فهم كثر ؟

ووثبت عليه ثانية، فدفعني ثانية على الأرض وجلس من فوقي ثم قال :

ـ الآن ذكرت مركب مراد ... وصار يضحك .

قلت :

ـ وما يضحكك يا لئيم وقد أفسدت حياتي ؟

زاد ضحكا، وصار يتقلب على الأرض من كثر الضحك ثم انبطح على بطنه . ابتسم وقال :

ـ أتفضل أن آخذ حياتك بدلا من إفسادها ؟

هنا صاح سعد :

ـ لا يا سفان ! هو ضيف السيدة !

اعتدل سفان عند ذكرها وسأل :

ـ قل لي إذاً ماذا تريد ؟

أجبت :

ـ كان في جيب الرداء كتاب ...

قال :

ـ نعم .

قلت :

ـ أعطني الكتاب ولا أبالي بالرداء .

قال :

ـ وإن كنت تبالي ما كنت فاعلا يا فارس ؟

أعدت :

ـ الكتاب يا سفان ...

قال :

ـ حيث إنك ضيف السيدة فلا بد من إكرامك . يا سعد اتركه معنا وعد أنت .

صحت :

ـ لا يا سعد ستغضب السيدة إن فعلت .

قال سعد :

ـ لن تغضب فقد قالت لي أن آخذك، ولم تقل أن أعيدك للقصر .

مضى سعد تاركا لي . خطر في نفسي : والله إنك غير حري بأن تحب . تبعت سفان مرتابا إلى حيث مجلسه، وتحيط بنا أشياء مختلفة قطعاً كلها مسروقة . دعاني للطعام، وصار يلاطفني فلان له جانبي ووجدته رجلا مرحا ونيساً، جعل يحكي لي قصص البحار ثم سألني :

ـ ما الذي أوصلك لأخي مراد ؟

قلت :

ـ هل تصدق لو قلت لك إنه حلم .

سأل :

ـ كيف ؟

فحكيت له الحلم الذي أخرجني من داري .

هنا قال سفان :

ـ أنا والله من يصدق بالأحلام ... قابلت يوما رجلاً من الأسكندرية كان عائدا إلى أهله من إفريقيا بعد رحلة

تجارة، وقد صاحبته في رحلته .

سألت سفان :

ـ صاحبته أم سرقته ؟

أجابني :

ـ لا لم أكن قرصاناً وقتها، كنت أعمل على إحدى سفن التجارة كبحار، حتى أكرمني الله وصرت قرصاناً . . .

قلت :

ـ سبحان الله يا أخي تحمد الله أن جعلك لصا والله منزه عن ذلك .

ضحك سفان وقال :

ـ لا يحمد على مكروه سواه، ثم أكمل بنبرة جادة : هذا الرجل الإسكندري حكى لي حلماً غريباً كان قد رآه أو عاشه .

قلت :

ـ والله يبدو لي يا سفان أنني خرجت لأقايض حلماً بحلم .

قال :

ـ لعل الأمر كذلك ولكن حلمه أغرب .

قلت :

ـ أذكره لي .

قال سفان :

ـ روى لي صاحبنا الإسكندري : إنه اشترى من سوق في إفريقية حيث أخذته تجارته، وقبل أن يركب البحر للعودة الى أهله في المشرق، اشترى لؤلؤة قال لي إنها سحرته بجمالها فلم يقدر إلا أن يقتنيها، وجعلها في كيس وضعه في إزاره . ومضى يجهز لسفره . بعدها ركب البحر في مركب اسمه المبروكة .

نام في تلك الليلة، فرأى فيما يرى النائم أنه دخل مكاناً محيراً لا يذكر كيف أدركه . كل ما كان يعيه هي تلك الخطوات الأخيرة التي خطاها وهو يهوى من سلم عظيم أوصله إلى قاعة لا يرى لها آخراً معبدٍ قد صم لسنين خاوٍ لا يذكر فيه إلا صمت أرواح ما انتبهت بعد،لأزمان ما عرفها أحد قبله، ولا آنسها حضور بشر سواه ...

كان لقاء بين ماض حصين وحاضر متوجس، وبينما هو متأمل إذ أحس بوجود غيره في ذلك المكان، بان له في ضوء خافت . عندما التفت لمحها تصعد مسرعة إلى الخارج. فكر فيمن تكون ؟ وكيف سبقته إلى هنا ؟ فما أحد قبله دخل إلى حيث هو .

كان لا بد له من اللحاق بها لمعرفة سرها. تبعها ونادى

عليها أن تتمهل توسل إليها أن تبقى لتخبره من تكون . فجأة وقفت، وبعد وهلة تكلمت، وكان حديثها كرجع أصداء دفء وحنان أحاطت بكيانه، وهي تطلب منه ألا يقاطع حديثها متى تكلمت، ثم أشارت إليه بأن يجلس . بعدها قلبت يديها ليرى راحتيها اللتين التمعتا كصفحة من فضة وقد ظهرت بهما كتابة .

قالت :

ـ اقرأ يا أخي .

ويدأ الإسكندري بالقراءة من الكف الوضاء، وكان ما قرأه هو ما حدث له للتو :

أتى إلى مكان محير لا يذكر كيف أدركه، كل ما كان يعيه هي تلك الخطوات الأخيرة التي خطاها، وهو يهوي من سلم عظيم أوصله إلى قاعة لا يرى لها آخراً، معبدٍ، قد صم لسنين، خاوٍ لا يذكر فيه إلا صمت أرواح ما أفاقت بعد، لأزمان ما لمحها أحد قبله ولا آنسها حضور بشر سواه . كان لقاء بين ماضٍ حصين وحاضر متوجس .

... وقف في ذلك المكان متأملا، فرأى ساحة من العمدان العظيمة ركزت بغير نهاية أمامه، و حيث لا تمتد الظلال من فوق تلك الأشكال الصخرية الثابتة، لامستها أضواء خافتة، جعلت تنبسط ثم تختفي في الدجى، و تباعا

كان يذوب ذلك الظلام ليظهر تلك الأضواء الباهتة وهكذا، توالت أمواج من ظلام وأمواج من نور . لم يدرك مصدر ذلك حتى أبصر آلافاً من المصابيح البلورية العتيقة معلقة من فوقه قد غشاها غبار الأيام، وُصلت المصابيح بعضها ببعض بسلاسل من حديد، وأخذت تتأرجح جميعا بصمت وروية بين شاطئين من غسق .

هنا قال لي الإسكندري: إنه توقف عن القراءة، فقد تعجب مما كان مكتوبا في كفيها، ومطابقته لما رآه وعلى الرغم من ذلك لم يحس بالريبة، بل كان في حالة كلها افتتان، فرأى أن يكمل، فلعل ذلك يهديه إلى ما قد جهل. هنا حملت راحتاها قصة غريبة تقول :

... وقف الأمير الشاب في هذا المكان الذي لم يقدر فيه أن يميز بين الهواء والنور فهل كان النور، ما لامس وجهه بخفة، و الهواء ما اهتدت به عيناه، فأبصر ما أحاط به أم العكس .

لم تكن لهذا المكان الفارغ أصداء، بل صفت تلك الدعامات كأصداء حجرية صامتة، امتدت لتغيب أخيرا في أفق بعيد داج، بيد أن أمواج النور أخذت تخبو في تيه وادعٍ آن ... أحس بوجود غيره في ذلك المكان، بان له في ضوء خافت عندما التفت ليرى فتاة تصعد مسرعة

إلى الخارج. فكر فيمن تكون؟ وكيف سبقته إلى هنا؟ فما وصل أحد قبله إلى حيث هو .

كان لا بد له من اللحاق بها لمعرفة سرها. تبعها حتى أتيا أعلى المدرج، ثم التفتت نحوه ونظرت إليه، وقد امتلأ وجهها دمعا وابتساما، دموعاً كادت تحمل أحزان الدنيا بأسرها، وابتسامات نقشت من بشر القلوب كلها، ولعلها دموع سقطت فرحا، وابتسامات انثنت كمدا !

وقف الشاب مبلسا ينظر إليها وهي تسير، فتعدو ابتساماتها إلى السماء نجوما، وتهوي دموعها إلى الأرض زهورا . بين روعة الأنوار تلك في السماء من فوقه ، ونشوة بساتين الزهور تلك على الأرض تحته أسر الأمير الشاب ... أما الفتاة فمضت لتختفي وأسرارها ... مرت سنون، وأصبح الأمير ملكا واقفاً على شرفة قصره مسربلا بالعز والأبهة، محلىً بالجمال والفتوة، واضعا يدا على سياج الحديد، الذى غطى شرفة القصر ينظر إلى جموع المهنئين وهم يملأون الطرقات يهتفون باسمه ويهللون . علت أصواتهم فوق أسوار قصره، لتدق عاجزة على جدار قلبه، فقد صم فؤاده عن أنغام الفرح منذ سنين ...

في ذلك اليوم صار ملكا لدولة شاسعة، دخلت عليه أمه والفخر يغشاها وسألت : "ما يمكنك أن تتمنى بعد

اليوم؟" أجابها: "أشتاق إليها". دون أن يزيد.

جواب أشعل في أمه ناراً لا يمكن إخمادها إلا بإيجاد تلك الفتاة التي أضنت ولدها ...

تتابعت السنون، دخلت أم الملك على ولدها و سألته :

" يا ولدي لديك كل ما تتمناه فما عسى أن ينقصك؟"

جاوبها : "هي"، ولم يزد .

هنا قالت أمه بسعادة : وها هي هنا .

التفت نحوها الملك وسحبت أمه ستارا ظهرت من خلفه فتاة . نظر إليها الملك ووقع من فوره على الأرض ميتا .

بعدما هدأ هلعهم، وصار حزنا، وأيقن الجميع أن الملك قد مات، التفتوا للبحث عن الفتاة، فوجدوا أنها قد هربت. ولم تقدر أن تعرف أم الملك من كانت تلك الفتاة، أهي التي أحب ولدها فمات من هجمة الفرح؟ أم أنها لم تكن معشوقته فمات من شدة الوجد؟ اختفت الفتاة دون أثر وغاب ولدها كأمواج النور التي ضاعت في أفق الظلام...

هنا قاطعت سفان قائلا :

ـ حاش أن يكون هذا حلماً يا سفان !

أجاب سفان :

ـ الصبر يا فارس فما سمعت إلا طرفا منه ...

قلت :

ـ أوصادق الإسكندري أم أنه من نسج خيالك ؟! أحسب أنك تريد أن تخدعني .

قال القرصان وهو يحك ذقنه :

ـ وعلى ماذا أخدعك، و بإمكاني ذبحك مثل النعاج، وتلقيمك للسمك دون أن أبالي .

قلت :

ـ الكتاب يا سفان .

قال :

ـ عدنا من حيث بدأنا... أما تمل يا أخي من ذكر الكتاب، وإن قلت لك إنه ليس عندنا.

لم أجبه ولا بد أن تقاسيم وجهي قد أفصحت عما في قلبي، فقد أخذ سفان يضحك حتى البكاء، وقال وهو يمسح دموعه :

ـ ... والله لقد صرت مثل تلك الفتاة التي تبكي وتضحك . هل فتنت يا فارس ؟

ومضى يضحك .

قلت :

ـ حاش لله أن تكون مثلها ، أما والله ما أبغضك يا سفان تقول هو ليس عندك، إذاً علام أبقيتني هنا ؟

قال :

ـ أنت ضيفي !

أجبت بامتعاض :

ـ من أخبرك بأنني أقبل ضيافة اللصوص ؟

قال :

ـ أحسبك قبلت، وأنت تعرف من أكون .

قمت إليه وأنا أقول :

ـ أعرف ويشهد على ذلك ردائي لكني قبلت لاسترداد حقي، أين أجد الكتاب ؟

قال سفان :

ـ ليس قبل أن تحدثني عما أخرجك إلى هذا المكان، وما سر ذلك الكتاب ؟

قلت :

ـ وتدلني عليه إن خبرتك ؟

قال :

ـ وأيم الله .

قلت ، ما أعجز من أخذ بقسم اللصوص . وحكيت له السبب .

مد يديه نحو السماء وقال ضاحكا :

ـ يا أخي إذا كلنا لصوص ! أم من يسرق كتاباً يكون غير ذلك ؟

قلت في نفسي: ليتني لم أخبره صدقا . ولكني فكرت : إذاً سارق وكذاب ... ما أشينهما من صفتين .

بعدها قال :

ـ أنا على وعدي ، ولكن لا بد لك من مصاحبتي إلى مكانه .

قلت :

ـ أفعل !

ابتسم سفان وأضاف :

ـ ... هو بعيد .

أجبت :

ـ وإن كان في عنان السماء لا أبالي .

هز رأسه، وقال :

ـ نبحر غدا إن شاء الله .

مضيت مع القراصنة أياماً تدفعنا الأمواج وتجرنا الرياح ...

وقبل أن ترسو السفينة، ناداني سفان إلى داخل حجرته، وأخرج علبة قال :

ـ الأفضل أن تجلس . فجلست .

أردف :

ـ افتح الصندوق .

فتحته فإذا بي أرى ما لم أحسب أنني أجده هنا أبدا . أرى كتاب سُليّى . نظرت إلى سفان بغيظ، وقلت :

ـ الكتاب عندك ! علامَ أخذتني معك ؟

أجاب مبتسما :

وجدتك ظريفا وقلت تؤنسني في رحلتي هذه ...

صرخت في وجهه :

ـ من أخبرك انني أرغب في مرافقك أو أريد صحبتك !

رميته بالصندوق ووثبت كي أقتله أو هكذا ظننت . دفعني ووضع خنجرد عند عنقي وهمس في أذني :

ـ يبدو أنك اشتقت للقاء عزرائيل يا فارس .

سحبني من قميصي وزج بي إلى الخارج، ثم رمى الكتاب، فأخذته وأنا أشتمه . رست السفينة وتركت سفان، لا جزاء ولا شكورا .

مضيت لا أدري إلى أين، فكان علي أن أعود إلى مراد ، سألت من يدلني على مكانه، ثم اشتريت راحلة وجهزت نفسي للترحال، ركبت البعير ومضيت في طريقي أطلب مدينة . قيل لي إنها لا تبعد عن هذا المكان؛ علني أجد من يعرف مرادا هناك، أو من يأخذني إلى حيث قابلته.

دخلت إلى وادٍ ، قد شق طريقا بين جبال شاهقة من صخر أسود وسرت فيه وبينما أنا سائر، وصلت إلى مكان معركة قد قتل فيها أناس كثيرون، وقفت ذاهلاً أنظر إلى تلك الجثث، وقد غطت المكان، قلت : لا حول ولا قوة إلا بالله، نزلت إليهم في التو، لعلي أجد حيا أسعفه وصرت أهرول بينهم، لم أجد فيهم حيا وسمعت صوتاً أتاني وكأنه حفر، تبعت الصوت، فوجدت رجلاً قد شمر عن ساعديه وأمسك بسيف عظيم، استعان به لشق الأرض الصلفة ...

ويردد :

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ...

أللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ...

ثم أخذ يدفن الأموات، واحدا تلو الآخر، اقتربت منه وسألته :

ـ ما تفعل هنا وحدك ؟

التفت نحوى فإذا به عربي الوجه، نبيل الهيئة، فيه سماحة العزيز وحزم السيد .

قال:

ـ أدفن هؤلاء.

سألت :

ـ وحدك ؟،

لم يجبني وأكمل عمله ... أردفت : تدفنهم جميعا ؟

أجاب :

ـ نعم !

قلت :

ـ كيف؟ ستموت مثلهم إذا !

ابتسم وقال :

ـ وإن حدث ذلك تدفنني أنت إذاً !

قلت :

ـ إنك لست بمكلف .

قال :

ـ لتحفظ كرامة الأموات .

قلت مشفقاً عليه :

ـ ياأخي لن تقدر عليهم جميعا ... ارحم نفسك فالكرامة للأحياء أولى، وما الجسد إلا جيفة تفنى ...

نظر إلي ثم قال :

ـ نعم، لكني لا أتحدث عن أموات مثلك ممن تسعى جيفهم ! فلعل بين هؤلاء الأجساد من سكنهم طهر أرواح عرفت ربها ـ أو كرامة لغيرهم ؟ حسبهم يا رجل أنهم أمسوا أهلا لغير لهذه الدنيا النتنة ؟

ثم تمتم وكأنه أخذ يحادث نفسه :

ليس من مات واستراح بميت

إنما الميت ميت الأحياء

قلت :

ـ سامحك الله ! يا أخي على وصفي بما وصفت، ولكن والله إن فعلك هذا لفعل خيار الناس، أنت صاحب مروءه يا سعد من صادقته، سواء أكان حيا أم ميتا، طوبى لك ؟

قال وقد أخذ يتابع عمله الشاق :

ـ هم ليسوا بأصدقاء .

قلت متعجبا :

ـ فمن يكونون إذاً ؟

أجاب دون أن يلتفت إلي :

ـ هؤلاء قتلاي . . .

كادت عيناي أن تسقطا من جفوني عجبا قلت :

ـ لا أصدق !

قال :

ـ ليس من شيمي الكذب . فإن أنت لست بمصدقي فعلام تسألني !

أجبته :

ـ معذرة يا أخي، إن صدقت فلنفسك وإن كذبت فعليها ، أما أنا فعابر سبيل يسمع ما يقال ثم يمضي ولكن ما تفعله ما ذكرت أعجب من العنقاء والغول والخل الوفي. . .

قمت إليه وأنا أقول :

ـ دعني أعينك .

قال :

ـ لا .

وأخذ يرتل بصوت جهور قوي ملأت أصداؤه المكان :

" وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقة ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ..." الله هو المعين . أما أنت فاذهب إلى حال سبيلك واتركني .

أيقنت عزمه على إتمام عمله وحده فقلت :

ـ كما تريد السلام عليك .

دعوت له، ثم تركته كما طلب ولكني بقيت أرقبه من بعيد دون أن يراني حتى انتهى من عمله هذا ، وغُشي عليه من التعب، فوقع على الأرض لا يحرك طرفا حسبته مات، ونزلت إليه من مخبئي مسرعا . جعلت أنظر إليه وهو ملقى فوق الثرى عاجزا قد تهدم عنه الجسد فإذ به على هيئة الأبطال سيّداً حتى في ساحة الأنهزام هذه .

فسبحان من كرم ابن آدم وأعزّه رغم أنفه، حقا إن الجوهرة لا تكون إلا جوهرة وإن زج بها في الوحل، والغبار لا يكون إلا غباراً وإن طار في السماء .

عجبت له وصرت أمسح عن وجهه التراب بالماء، وأتحدث إليه أقول :" عافاك الله وأعاد إليك قوتك يا هذا... " ثم وضعت من تحت رأسه عمامتي وزملته بعباءتي، بعدها قمت لأحمل سيفه الذي ألقاه على الأرض، وجعلت أتفحصه فوجدت أن نقشاً عليه :

العز الدائم لحامله توبة بن علي السالمي.

مضى وقت طويل، ولم يفق الرجل، أنزلت حمولة رحلي وقلت في نفسي : لن أترك هذا حتى أعرف قصته . مضى نصف الليل، ونمت، ثم أفقت فلم أجد الرجل بجواري، ووجدت عمامتي وعباءتي، أما الرجل فقد أخذ سيفه واختفى، قمت مسرعا أبحث عنه فلا أجده، وجعلت أتعثر على الصخور في هذا الوادي النحس .

بعدها سمعت وكأنه تحاور، فأسرعت نحو الصوت، فرأيت الرجل جالسا على صخرة عظيمة يدعو بخشوع التفت نحوي وابتسم، ثم قال :

ـ تحسبني أتركك دون أن أشكرك على حسن فعلك بي .

اعتليت الصخرة وجلست بجواره وأنا أتفحص ثوبي الذي قد مزق طرفة، ضحك الرجل ثم أردف :

ـ ... ولكن قل لي يا أخي كيف لخائف مثلك أن يجتاز هذه المفازة وحده . أما تخشى الوحوش .

نظرت إليه هنيهة ثم قلت :

ـ من قال لك إنني خائف ؟

هز رأسه وسألني :

ـ لعلك غير ذلك . ولكن قل لي ما الذي أتى بظريف لطيف يسكن مدينة يتنعم بخيرها إلى هنا ؟! أنت أهل

لغير هذا المكان . ما الذي أخرجك إليه ؟ فلا بد لك من قصة .

أجبت في الحال :

ـ قصتي والله ! ليست بأعجب من فعلك الذي رأيت .

قال الرجل :

ـ العجب في غير ما فعلته، وما كان لأحد أن يرى فعلي .

قلت :

ـ إنك لا تبدو لي جبارا يقتل من يكون له قلب عرف ربه .

سكت الرجل وجعل يرقب الفلاة . . .

سألته :

ـ أأنت توبة بن علي السالمي ؟

قال :

ـ نعم أنا هو.كيف عرفت ؟

أجبته :

ـ يعرف الفارس من سيفه .

ابتسم توبة وقال :

ـ لا أضاع الله لك سيفا يا فارس ... دهشت لمقولته هذه كيف عرف اسمي؟!

ثم أكمل :

... بن محمد آل رخوان .

هنا زاد عجبي فسألته :

ـ وكيف عرفت اسمي ؟

قال :

ـ أنت الذي ستسمع قصتي . الآن قم معي يا رجل نصلي كي لا يضيع علينا هذا السحر .

وقفت جواره وهبت نسمة محملة بعبير الليل الصافي والأنجم بدت قريبة كأنها فوانيس عُلّقت فكادت تلمس رؤوسنا عند وقوفنا . في صباح اليوم التالي أتى توبة بينما أنا أخرج زادا لآكله قدمت إليه تمرات فقال :

إنني صائم .

استحييت من نفسي، وكدت لا أكمل طعامي، نظر إلى توبة كأنه عرف ما خطر في نفسي وقال :

ـ يا فارس أكمل ... وليصم قلبك عن غير الله، و عقلك عن تدبر المعاصي، ثم الغفلة عنها . يا فارس ليس لك إلا أن تتجرع صدقا، فيكون الود لك خلاصا والعمل لك فلاحا، والحياة لك منجاة . الصوم جنة ... للصادق كما الصلاة صلة ... للخاشع ... أما من يلهث خلف هواه ثم يقول : ربي إني صائم . ومن تسوقه الغفلة ثم يكبر ويقول اللهم قد عبدتك . كل يا أخي كل ... وقل لي ما

الذي أتى بك إلى هذا المكان ؟
هنا جلس توبة تحت شجرة الشوك، التي لا بد وأن مائة ثعبان قد سكنها ثم قال :
ـ الحمد لله على هذا النعيم .
قلت :
ـ سبحان الله ! ما النعيم في قيظ، ومرقد صخر، وظل شوك .
ضحك توبة ثم قال :
ـ لكل نعيمه يا أخي ... ها، قُلْ لي ماالذي أتى بك إلي جنتي ...
أخرجت له الكتاب ... تناوله ثم ابتسم و قال :
ـ ما أخف كتابك هذا كأنه طيف يزور ساعة، ثم يمضي ...
قلت :
ـ وما أشجاه ... والله لو تدري يا رجل ما أثقله علي !
سأل توبة متعجبا :
ـ وأين ثقله ؟
أجبت :
ـ ثقل الوزر عافاك الله . ثم أكملت : أنت لا تعرف أنني لن أرتاح حتى أتحلل من عاره .

قال :

ـ أويحمل كتاب كل هذا !

قلت :

ـ بل أنا، أخذته خلسة ... سرقته .

طأطأ توبة رأسه وقال :

ـ ما كان لك أن تحدثني بهذا. فعلام تفضح ما ستره الله .

وضع الكتاب من يده ثم أدار نفسه عني وسكت لم أدر ما أفعل .

قلت :

ـ يا توبة أنت صرت لي بمثابة الأخ، والافتضاح ليس بمعرفتك ذنبي، ولكن من فعلي قبل ذلك .

هز رأسه :

ـ صدقت . إن شاء الله ترده إلى صاحبه .

صوبت قوله :

ـ بل لصاحبته ...

قال توبه :

ـ لا تكمل حكاية كتابك هذا، فلا أريد أن أعرف أكثر مما عرّفتني .

سألته :

ـ يا توبة هل لك أن تحكي لي قصتك ؟

أجاب مازحا :

ـ وهل سئمت رفقتي يا فارس حتى استعجلت قصتي ؟

قلت :

ـ لا والله ! أيمل من طيب مثلك ؟ ولكني وددت سماع قصتك .

قال :

ـ ولكن قبل ذلك آخذ عليك عهدا .

سألت :

ـ ما هو ؟

أكمل :

ـ إن حكيت لك قصتي لا تفارقني، حتى آذن لك بالذهاب .

سكت لبرهة . خطر في نفسي: أبقى حبيس جنته هذه ! ونعيمه هذا ! لا والله !

أجبته في الحال :

ـ عافني يا توبة من هذا . فأنا لا أطيق البقاء هنا . ليس زهدا في صحبتك ولكنني أرنو إلى ما هو أفضل . قد ألفت نفسي غير هذا كما ذكرت أنت .

ضحك توبة وقال :

ـ نعم أنت على حق . ولكن لو بقيت معي حتى أفطر .

قلت :

ـ ما عدوت ما في نفسي .

ثم ودّعته، وقد اغرورقت عيناي لفراقه، فكأنما قلبي قد عرف شيئا عنه وعن فضله .

ولكني صرت أحادث نفسي أن لو لم يكن في قصته شيء، وبقيت أنا رهين عهد في واد مجدب لا ينبت فيه إلا الأسقام. ولكن كيف؟ لم أر أعقل من هذا الرجل، ولا أكمل منه وقد حد نفسه في هذا المكان !

لا بد وأن له سراً. وأي سر !

ذات يوم بينما أنا سائر تطوف بي خواطر الغريب البعيد عن داره وأهله . قلت : يا فارس قد سئمت الترحال عد إلى موطنك ودَعِ الكتاب وشأنه، لعله أنفع عندك . أنت لم تقصد سرقتة الأعمال بالنيات، وكيف كان لك أن تعرف أن قراصنة تداهم المركب في تلك الليلة، ولا يعجبهم إلا رداؤك. وها أنت ذا كلفت نفسك الضنى لتعيده دون أن توفق، فلعل الله قدر كل هذا ليكون الكتاب كتابك، فما فائدة كتاب في مخبأ في حجرة سُليّى التي تحبس الأحياء، وإن كان لها حاجة به لأحست بفقدانه، يبدو أنه لا يعني لها شيئاً . وكما ذكر توبة إنه كتاب بخفة الطيف، وهكذا جعلت أناشد الأعذار فتأتيني .

وبينما أنا غارق في تفكيري، إذا بي ألمح من بعيد ركباً ينحدرون بسرعة نحوي يَلُفّهم عجاج مراكبهم ...

أوجست منهم خيفة، أسرعت أحث ناقتي بعصا هربا

منهم أن يلحقوا بي، ولكن الركب لحق بي . أوقفوني، أنزلوني عن راحلتي، وجعلوا ينبشون متاعي، فعرفت أنهم من اللئام .

لم أفهم تحاورهم، سحبوني وكبلوني، وساروا بي حتى دخلنا مدينة كأن الزمان قد نسيها، والبركة قد سئمت منها، ثم زجوا بي في حجرة قذرة مظلمة، ولم يفكوا قيدي بقيت هناك ساعات أقلب الخواطر، وأدعو ربي صرت أنادي من يفك قيدي لأصلي ؟! يا ناس أما فيكم رجل رشيد ؟!

بعد زمن فُتح الباب ودخل عجل من البشر . سبحان الله ! فكأنما ارتمت الغلاظة على وجهه قلت : سلم يا أخي ! لطمني ثم أخذني إلى السوق، وأنا أكاد لا أصدق ما وقع بي، صار يحادث قوما وكأنه يبيع شيئا ما .

جعلت أرقب القوم لا أفهم ما يقولون، ثم نزع قميصي وصاروا يتفحصون أذرعي ومنكبي ثم أسناني، فهمت أن المراد بيعه هو أنا !

هنا صرت أصرخ :

أوَيُباعُ حر ؟! أويباع مسلم ؟!

لطمني أخرى وقعت إثرها على الأرض ثم ركلني رجل فيهم، وأشار إلي بإصبعه أن أسكت .

قلت :

ـ هذا والله لا يصير !

أجابني :

ـ بل هذا صائر وأنت عبد بن عبد .

لن أطيل في وصف ذلي، فبعد ضرب وجلد وحبس تبين لي أن ما حسبته لا يصير قد حدث وأني أحياه ، مثلي في ذلك مثل السيدة الكريمة التي تسكن السماء دعوت لها بالرحمة .

بقيت في هذا المكان أعمل في منجم للذهب، تحرق الشمس طوال النهار ناصيتي، ولا أنام ليلا من أوجاع في جسمي . مكبلا بحديد . صبحي كد، وليلي آلام . يطعمونني ويسقونني ويكسونني وهكذا أعيش حياة العبيد .

أقسمت على نفسي إن نجوت أن أنفق أي ذهب لدي لوجه الله، كرهت الذهب ومن يحبه، فوالله إن اسمه شؤم، وحبه لؤم، علام يحب الناس شيئاً ذهب ؟!

في ذات ليلة بينما أنا في محبسي إذ بي أسمع من يردد ، "وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا "

ناديت :

ـ من القارئ ؟

فإذا بالعبيد أمثالي يزجرونني :

ـ اسكت ودعنا ننام .

قلت :

ـ ناموا أنتم أما أنا فلا أنام حتى أعرف .

ثّنيت النداء :

ـ من القارئ ؟ غير آبه بغضبهم .

ثم سرت في الحظيرة التي أسكنونا إياها أجر قيودي نحو السور، نظرت من خلاله لأرى الرجل العجوز الذي يأتينا في كل يوم بالماء ليسقينا ونحن في الجبل .

سألت :

ـ هو أنت يا عم ؟

قال :

ـ لبيك يا فارس .

قلت :

ـ أنت القارئ ؟

أجابني الشيخ :

ـ هذا أفعله في كل ليلة .

قلت بتعجب :

ـ لم أسمعك من قبل !

قال :

ـ كلنا صادق إن شاء الله . ولكنني أفعل هذا في كل ليلة

يا فارس وإن لم تسمعه .

سألته وأنا أنظر إليه من خلال السور :

ـ يا عم أأنت عبد مثلنا ؟

أجاب :

ـ كيف تراني ؟

قلت :

ـ أراك رجلا ولا أدري هل أنت عبد أم لا .

قال :

ـ أنا كما تراني ولكن قل لي يا فارس تريد أن تسمع مايسبق هذا النعيم وذلك الملك الكبير؟

أجبت :

ـ نعم ويكتب الله لي ولك رؤيته يا عم .

ابتسم الرجل وصار يرتل :

" ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا* إنما نطعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا* إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا* "

سكت عن القراءة ونظر إلي ثم قال :

ـ لن تنجو مما أنت فيه حتى تفعل ذلك .

قلت له :

ـ يا عجوز والله قد خرفت ! أنا ذلك المسكين وذلك الأسير ولعلي صرت أيضا ذاك اليتيم . أوينعم عبد على عبد ؟

قال :

ـ يا فارس أنت على حق فيما قلت لا ينعم عبد على عبد فما أعجز ذاك وذا .

أكملت :

ـ ولم يبق لي شيءُ أحبه حتى أنفقة .

ضحك الرجل وقال :

ـ ربما تريد أن تسمع وصف بعض من ذلك النعيم .

أجبته :

ـ بالله عليك زدني! فقد وجدت بك راحة، جزاك الله خيرا روح عني بها .

أكمل يرتل :

" فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورا *وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا* متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا* ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا* قوارير من فضة قدروها تقديرا* ويسقون فيها كأسا كان مزاجه زنجبيلا * عينا فيها تسمى سلسبيلا* ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم

حسبتهم لؤلؤا منثورا* وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا* عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا* إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا* إنا نحن نزلنا القرآن تنزيلا * فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا* واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا* ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا*"

ابتسم الرجل وقال :

ـ اعلم يا فارس أن اليوم الثقيل ليس يومك هذا . لن تنجو حتى تفعل ما ذكر .

بعدما سكت الرجل، بقي ما تلاه يطوف بقلبي دعوت له :

ـ بارك الله لك وفيك يا عم، ما أحسن القرآن وأكمله حسبي أن أوانيها وأكوابها وأساورها من فضة فما أكره الذهب بأصنافه إلى نفسي .

قام الرجل وتركني قلت :

ـ إنه مجنون يريدني أن أتصدق على من هم في مثل حالتي وبماذا ؟

فكل ما كان لدي من فضل هو الشقاء والنكد .

في اليوم التالي انتظرت الرجل أن يأتي إلينا بالماء

لأسأله عمّا ذكر فلم يأت، وجاء آخر ليسقينا، وهكذا توالت الأيام سألت رفيق ضيم لي اسمه عبيد :

ـ إين السقا العجوز يا عبيد ؟

قال :

ـ يقولون إنه قد مات !

شهقت :

ـ مات ! مات ! أمات حقا !

استغرب الرجل جزعي وسألني :

ـ مالك وماله حتى يروعك موته ؟

خطر في نفسي :

ـ ما أجلفك ! ظني أن الهوان قد طال عليك، حتى أدبرت عنك الشفقة !

ثم أجبته قائلا وقد أظهرت له جلفي :

ـ لا شيء ولكن لوحدثتني عنه ؟

قال :

ـ أعرف أنه رجل فقير يأتي إلينا في هذا المكان ليسقينا، وقد كان الناس ينهكهم العطش قبل ذلك، ولا يبالي القائم على العمال حتى حدثه العجوز بلزوم سقايتنا في الجبل، ومنّاه بأن عملنا سيتحسن إثر ذلك . فسمح له بسقيانا .

هنا أجبته ولم أتمكن من كتمان خواطري العاصفة :

ـ هذه والله سنة كلها رحمة تعرف ذلك عنه، ولا يروعك موته ؟!

ثم تابعت :

ـ ما أشقاك .

وذهبت عنه والغضب يكادُ يفتك بي لولا رحمة ربي .

لحق بي عبيد وسأل :

ـ ما بالك تغضب مني يا فارس الأمر لا يحتمل كل ذلك .

قلت :

ـ يحزنك غضبي ولا تحزن على السقا.

قال :

ـ يا فارس الأمور على غير ما تراها !

قلت :

ـ بل صرت حجرا مثل الحجر الذي تدقه كل يوم اتركني وشأني . كفاكم أنكم ألفتم حياة الهوان .

مضيت وتبعني عبيد وهو يقول مستهزئاً :

ـ علمني إذا كيف أعيش غيرها ؟

لم ألتفت إليه وعزمت على خلاص نفسي .

مات السقا العجوز وما كدت أعرف فضله علي، بعدها ما سكن الليل إلا وطافت بي هواجس الجنة لتوسع ضيقي،

وتشبع جوعي، وتسقي ظمئي، وتهون كمدي، وكدت أراني في غير هذا المكان مسربلا بأثواب الفضل أردد: " وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا". ثم أغرق في نوم كأنما لا صحو بعده .

حاولت مرارا الهروب من محبسي دون جدوى حتى صار قيدي لا يفك ليل نهار، ورفقاء الضيم يلومونني ويقولون: ما جنيت من حماقة مثل هذه إلا زيادة في العذاب . وآخرون ينصحونني بأن لا أغضب السجان حتى يحصل لي من رضاه شيء ما .

أجبتهم جميعا :

ـ سبحان الله ! وأي فضل يرجى من سجان ؟

طال حديثي معهم بأن الموت أجدى من حياة كهذه . وأننا عصبة لن يقدروا على التنكيل بنا جميعا . فبعضهم قال: نخاف !

قلت :

ـ مماذا، أن يأخذ منكم بعضاً من هوان،أو تصابوا بشيء من ذل، أو ربما أن يفاجئكم القدر بكرامة ؟

وآخرون قالوا :

ـ إن لم تكف عن هذا أخبرنا القائم بثرثرتك .

ذات يوم لم أقدر على كتمان ضيقي وقلت لهم :

ما أحقركم !

ثم أخذت صخرة، وصرت أدق بها سلاسل قيدي بكل ما أوتيت من قوة، حتى سال الدم من يدي وأنا غير مبال، وهم يسخرون من فعلي، مضيت في دق الحديد لعله ينكسر، فلا ينكسر .

اقترب مني فتى كان معنا ووقف بجواري ثم قال :

ـ دعني أساعدك يا عم .

شد القيد وثبته حتى أتمكن من طرقه . هنا علا ضحكهم وقالوا :

ـ الآن نجا فارسنا ! بعد زمن مل القوم منا فتركونا .

أما نحن فمضينا في عملنا ... وبعد وهلة كسر الحديد! تابعت الدق، فكدت لا أصدق نفسي حتى نبهني الفتى قائلا :

ـ كسر... كفى كسر كسر...

رفعت يدي وأنا أصرخ :

ـ حجر يغلب حديداً ! حجر يغلب الحديد !

ودمي يقطر من الحجر. نظرت إلى الولد الذي ما رأيته مبتسما قط قبل يومي هذا، وقلت همسا : حجر يا أخي يكسر ... وقبل أن أكمل إذا بظل رجل يفترش أمامي، عرفت أنه الحارس التفت لأراه، ثم قلت :

لا قيد بعد اليوم . ورميته بالحجر فأصبت رأسه ووقع مغشيا عليه .

نظرت إلى الولد وقلت :

ـ هيا بنا نأخذ المفاتيح ونخرج .

أجاب :

ـ لا أستطيع فأنا مكبل، ولن تقدر على فكي .

وأظهر لي قيده ثم أردف :

ـ اهرب أنت ولا تنساني .

صرت أبكي وأجر قيده وأقول :

ـ لن أتركك .

قال :

ـ بل تعجل عافاك الله مما نحن فيه ... ولا تنسني ...

أعدت :

ـ لا لن أفعل ...

دفعني بقوة و قال :

ـ حبيس يفدي حراً اذهب عافاك الله ... اذهب ...

أخذت المفاتيح، وقلت له :

ـ عهداً علي أن أنجيك .

وأسرعت هاربا من المكان . سرت لا أفكر إلا بالبعد عن

تلك البقعة المشؤومة، مشغول الخاطر بالفتى الحزين، أمشي وقد أخذني جزع شديد، وبكاء مفرط، لأنني تركت حرا بين زمرة عبيد وجُلاد ... حدثت نفسي عنه وما فارقت عيناه خيالي، وهو يقول : حبيس يفدي حراً...

قلت : لا والله بل حر يفدي حبيساً ... فقد حبسني بمروءته، ولن أنفك حتى أوفي عهدي له .

وغابت عني سُلَيّى وكتابها .

صرت أحادث نفسي وأنا سائر ألوح بيدي، فظني أنني أصبت بشيء من جنون . أخذت آكل من العشب الذي أجد وأسير فلو أنني توقفت مت . حتى وصلت إلى بلد دخلت إليها كأنني رجل قد نبش من قبر، واختلط عقله، أصفق وأتمتم بما لا يفهم ثم أصرخ: "لا إله إلا الله، يا غياث أغثنا"، سمعت الناس يقولون :درويش من دراويش سيدي بو صبيحة، غشي علي، وبعدها حملوني إلى مسجد "سيدي بوصبيحة" وبقيت أياما أصارع الموت حتى شفيت كان المسجد قد بني بجوار البحر، تهب نسائمه على المصلين .

كنت في تيهي أسمع موج البحر، وتراتيل القراء، فبدت لي كرنيم الملائكة، وهذا ما أبقى على عقلي حتى أفقت لأجد رجلاً عجوزاً بجواري يمسح جبهتي بالماء ويقول: أنت بخير

من الله يا بني .

جعلت أنظر إلى المصباح المعلق من فوقي، ثم أبصرت الحمام وهو يحلق في قبة المسجد الأبيض، يخفق بجناحيه.

قال العجوز : لا تخف هذا حمام لن يؤذيك . ما اسمك يا أخ ؟

يبدو أنه سمع مني حسيناً، فقال : مرحبا بك يا حسين .

قلت : لا بل فارس اسمي فارس ... قد كان اسم الفتى الذي تركت حسيناً .

بقيت في المسجد زمناً، يأتيني الشيخ أبو الندى بزاد يومي، الذي جعلت أتقاسمه مع رجل فقير كان رفيقا لي وبي، في مسجدنا اسمه "سلوان" . كان سلوان من أسعد بني الدنيا وله عصاً قديمة يتوكأ عليها وينادي من آن لآخر...

" توكلنا على رب السماء وسلمنا بأسباب القضاء"، و له قارورة طيب صغيرة مارأيت بعمري أصغر منها، لكنها على الرغم من صغرها ما فرغت قط من عطرها، يخرجها في كل يوم، ثم يطيبني ونفسه ويقول :

ـ ترى أنشم رائحة الجنة يا أُخَيّ؟ ترى أنشمها ؟

سألته ذات مرة :

ـ من أين لك مثل هذا الطيب الحسن يا سلوان ؟

أجابني :

ـ هذا من طيب أمي .

سألته : وأين أمك يا سلوان؟

قال :

ـ مالك ومالي، يكفيك منها العطر، وإلا قطعت رأسك بسيفي .

ثم أخذ يلوح بعصاه، والجد قد ارتسم على وجهه . بعدها ضحك دون صوت وانفرجت أسارير وجهه بشرا، فبدت نواجد قد سقط بعضها.

تآخينا أنا وسلوان كان خفيف الظل، يختفي أياماً ثم يعود ليمازحني ويقول وهو يهز رأسه :

ـ لو تعلم على ماذا أتوكأ يا فارس؟ لو تعلم يا أُخَيَّ ؟!

فأجيبه :

ـ على عصاً واهنة بالية .

هنا يبتسم ابتسامه ماكرة ثم يعيد :

ـ لو تعلم !

أتاني الشيخ أبو الندى ذات يوم و قال لي:

ـ أنت تعرف يا فارس أن هذا زمن الورد، فاخرج معي لبستاني، وخذ من الورود ما يلزمك، ثم بعه فلا بد لك من صنعة .

هززت رأسي وقلت :

- أفعل ما ترى يا عم .

كنت دائم الفكر في حسين مشغول البال مهموماً، في كل ليلة أدبر أمر العودة إليه وفكه من أسره ، وفي كل صباح يستوقفني عجزي . فكرت لعل عملي يقربني من الوفاء بعهدي، قد طلب مني حسين ألا أنساه، وقد عهدت على نفسي أكثر من ذلك .

قمت مع أبي الندى وفي الطريق سألته عن بوصبيحة من "يكون؟" قال :

- كان من العباد المرابطين رحمة الله عليه . كان ينصر المظلوم ويذود عن الحمى مجاهداً بطلاً...

ضحك الشيخ، وأردف :

- نساؤنا عندما يصبن بضيم يقلن : يا سيدي بوصبيحة أرزقهم بطيحة ... فهو فارسنا،

ضحكت وسألت :

- ثم ...

- قاطعني وقد دخلنا إلى البستان قائلا :

- ثم ... رحم الله سيدي بوصبيحة... هاك الورد وهناك تجد السلال خذ وأخرج إلى السوق . وفقت يا ولدي وعوفيت من حزن أجده فيك .

فقد عرف أبو الندى حزني، دون أن يعرف سببه .

جمعت وردا نديا عطرا، وخرجت أجلس على الطريق لبيعه، بينما أنا جالس إذ بغلام يلوح لي قمت إليه مسرعا فرأيت أنه يشير إلى عربة تقف عند الطريق عليها قبة من قماش بداخلها امرأة حسناء...

غضضت نظري لا بهاجس من تقوى، ولكن بفعل الذل الذي أصابني من أسر وهروب وعهد لم أوفه بعد .

جعلت تقلب الورود بأنامل رقيقة يسمع لأساورها وسوسة تسألني وأنا أجيب خافض الرأس، ضحكت ثم قالت :

ـ ما بالك يا هذا أتخشى النساء ؟

أجبتها في الحال :

ـ نعم .

ضحكت وقالت :

ـ والله ما سمعت رجلاً يجيب بمثل ما أجبت !

قلت :

ـ الآن قد سمعت .

قالت :

ـ هات الورد كله .

ناولتها السلة وذهبت نادت علي :

ـ الثمن !

لم أجبها وسرت لا ألتفت .

دخلت إلى المسجد صليت، واقتسمت مع سلوان الطعام، ثم أخرج سلوان الطيب وطيبني، قلت :

ـ ليت لحسين طيباً مثل هذا،

عندما سمع سلوان ذلك مني أخذ قارورة طيبه ورماها من شرفة المسجد ثم قال :

ـ والله يا أُخَيّ ليت لي مثل ما لحسين !

سألته :

ـ ما الذي دعاك لفعل ذلك ياسلوان ورميك طيبك !

أجاب :

ـ ألم أقل لك قبل اليوم مالك ومالي نام نام .

ثم أخرج قارورة الطيب من جيبه وضحك . نمت في مكاني .

في اليوم التالي وبينما أستعد للخروج إلى عملي قال لي سلوان :

ـ يا أُخَيّ أنت تعلم كم أحب عصاي .

قلت :

ـ أعرف يا سلوان ليت أحدا يحبني قدر حبك لعصاك .

قال :

ـ وهبتها لـك محبة وإخلاصا لوجه الله تعـالى حتى لا يبقى لي شيء من حطام الدنيا أسأل عنه .

قلت :

ـ اسمع يا صـديقي أنا رجل عرفت من الحـياة أكثر مما تظن، فأنت تعـرف يومي ولم تعرف أمسي، عصـاك هذه ليست من حطام الدنيـا ، وإن شرفـت بحبك لهـا . فـأبْقِها لك ولا حرج فالله غفور رحيم ... ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

أجاب مبتسـما :

ـ أنت تحسـن الجدال يا فـارس هذا داء زمـننا ، احـذر يا أُخَيَّ فالله إذا أراد بقومٍ سوءاً قذف بينهم الجدل، ومنعهم العمل، تحـسب أن الـسـعـادة في الإبقـاء، بل هـي في العطاء... لذلك لا بد لي من إعطائك العصا.

دهشت لما قاله رفيقي، تنهد سلوان وأكمل :

ـ لا يوجد لي شيء آخر أؤثرك به سوى نفسي . عصاي أنفع ...

ثم أضاف :

ـ احذر المرأة !

سألت:

ـ أي امرأة ؟

قال:

ـ التي في قلبك .

قلت :

ـ سبحان الله من أخبرك ؟

أجاب :

ـ رأيت في عيونك الدنيا، ولكن أعرف أن عصاي هذه خير لك منها.

ضحكت وقلت :

ـ من يسمعك يحسبها عصا موسى .

قال:

ـ أنت وشأنك ، ورمى العصا نحوي .

خــرجت إلي تجــارتي أحــمل سـلة مملوءة بورود تفــوح رائحـتـهـا من حولي وأنا سـائر. جلست على الطريق أنتظر رزق يومي، بعـد زمـن أقبلت علي امـرأة وقـفت عند رأسي قلت لها :

- لبيك سيدتي .

قالت :

- مولاتي راح تطلبك حتى تأخذ ثمن الورد .

أجبت :

- لا أريد أن يكون له ثمن .

قالت الفتاة :

- لو عـدت إلـيـهـا من غـيـرك لأرهقـتني ضـربا، أرجـوك قم معي .

أشفقت على الفتاة قلت لها :

- هيا بنا والله لا أدري ما يحمله اسم سيدتك أسعدا أم

شؤماً ؟

ذهبت معها حتى وصلنا دارا جميلة، واسعة المرافق، جلست في طرف الحجرة لا أتحرك حتى دخلت راح إلى الغرفه . ابتسمت وقالت :

ـ أخبرتني الفتاة بأنك لا تريد لوردك ثمنا... فما قولك إن أردتُ له ثمنا .

قلت :

ـ سيدتي ...

وقبل أن أكمل ضربتني بخفة علي جبهتي بمروحة كانت تحملها، وقالت :

ـ ارفع رأسك ...

ثم جلست فرأيتها متكئة على "دكة" وبيدها تلك المروحة تروح بها عن نفسها أكملت :

ـ ... وأنا من سيذكر لك الثمن .

تعجبت لحالها وقسوة حوارها، ولكنني سكت حتى أعرف منتهى أمرها، أوربما سكت لأنها شغلت قلبي كما ذكر سلوان .

سألتني :

ـ أتعرف ما ثمن الورد ؟

أجبتها :

ـ نعم .

سألتني :

ـ وما هو ؟

قلت :

ـ انتشاؤك لعبيره ...

هنا ضحكت وقالت :

ـ هكذا أحب أن تكون . اسمع أنت أول من يعطيني شيئا دون أن يطلب له ثمنا .

قلت :

ـ والله إن صدقت فهذا ما يكون إلا من نحس الزمان .

تنهدت راح و أجابت :

ـ أي والله ... إنه لزمن نحس .

ثم أضافت بغنج :

ـ اسمع يا بائع الورد أعطيك شجر نارنج في بستاني تقوم عليه وتبيع ثمره .

نظرت إليها وقلت :

ـ وأين الشجر ؟

أشارت إلي :

ـ قم معي ...

وأخذتني إلى بستان بداخل الدار قد أحيط بسور به شجر النارنج قد أزهرت زهوره .

قالت :

ـ هذه لك عن قريب تثمر. وليس لك إلا أن تقبلها .

أجبتها :

ـ قبلت .

وخطر في نفسي أن أضم ثمنه إلى ثمن بيع الورد. صرت متعهدا للشجر أقوم عليه حتى يثمر. في كل مرة كنت أدخل إلى البستان كانت تناديني راح :

يا بائع الورد...!

فأرفع رأسي لأجدها تنظر إلي من شرفة مطلة على البستان تحادثني منها .

ذات مرة بينما كنت في البستان وقد كانت زهور النارنج العطرة قد اختفت، وظهرت ثميرات خضر قاسية سألتني راح إن كنت أقرأ ؟ أجبتها أنني لا أعرف، قالت : كذاب ! ورمت إلي برسالة تركتها ولم أفتحها.

أتيت البستان يوما كما عهدت، ولم تكن ثماره قد نضجت ، وبعد أن أتممت العمل به، لم تُطِلّ راح علي من شرفتها فتركت البستان كأنني قد فقدت شيئا ما. عدت إلى المكان ثانية ولم تخرج إلي راح، سألت الحارس وأنا

ذاهب عن دارها :

ـ كيف السيدة ؟

قال :

ـ علامَ تسأل عن السيدة اليوم ؟

قلت:

ـ هو سؤال لا ضير في أن يسأل .

لم يجبني الحارس .

بعد عدة أيام من غياب راح، لمحت الفتاة التي كانت بعثتها إلي، ناديت عليها، ثم سألتها :

ـ كيف سيدتك ؟

قالت بحزن :

ـ سيدتي مريضة وقد تموت .

قلت :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . ومن عندها ؟

أجابت :

ـ لا أحد سيدتي وحيدة ليس لها أنيس ولا جليس ولا حتى عُوّاد، هكذا أرادت لنفسها، ولكنها تذكرك وتسأل كيف حال شجرك حتى يصلك خير البستان وترد ثمن ما أخذت ؟

سألتها :

ـ هذا ما قالته سيدتك ؟

أجابتني :

ـ نعم .

قلت :

ـ قولي لها إنه لا يمنعني من زيارتها إلا العيب .

في اليوم التالي أتيت البستان، ولم تكن هناك حاجة لإتيانه . ما فعلت ذلك إلا لانشغالي بمرض راح . صرت أدور في البستان حتى جاءتني الفتاة سألتها :

ـ كيف سيدتك اليوم ؟

قالت :

ـ تسلم عليك وتقول سيدتي : أدعُ لراح علها تشفى فتطل عليك عند الصباح .

رفعت عيني إلى الشرفة الخالية، و دعوت لها بالشفاء، ثم تركت البستان . مرت أيام عدة كنت آتي المكان ولا أخرج منه إلا متأخرا تحسبا لأخبار قد تصلني من راح، وقد بدأت أجني ثمار بستانها .

في يوم من أيام القطاف هذه سمعت صوت راح يأتيني من مكانه المعهود، رفعت رأسي إلى الطاقة، وقالت راح :

ـ كأني قد اشتقت لرؤيتك يابائع الورد...

أجبتها :

ـ والله أنا المشتاق دون "كأنّي"...

لا أذكر بعدها كم من مرة طلبت منها أن تتزوجني .

في كل مرة كانت تضحك وتقول :

ـ أما أخذت ثمناً لوردك ؟

فأجيبها :

ـ ليتك تَنْسَيْنَ الورد وتذكُرين صاحبه .

في ذات يوم قلت لها :

ـ قد سئمت طول وقوفي بباب رضاك .

قالت :

ـ ما هكذا آداب المحبين .

سألتها :

ـ وما الذي يمنعك إذاً من زواجي إن كنا محبيْن ؟

أجابت:

ـ أصدقك ! قد سئمتك لا بارك الله في الورد ولا بائعيه .

قلت :

ـ سئمتك العافية ! والله ما سئمت إلا حسن ظني بك .

وخرجت من عندها وقد اسودت في وجهي الدنيا .

أردد : ... اشترتني لُعْبةً لها بسلة ورد .

جلست ألوم نفسي، فقد أنستني راح كل شيء حتى حسيناً، وما عدت أفكر إلا بها . أتاني سلوان وأنا جالس. أقبل علي يغني :

يا رحمة الله حلي في منازلنا

وجاورينا فدتك النفس من جار

سألته :

ـ يا سلوان كيف يقتص الرجل من نفسه ؟

أجاب :

ـ ينساها يا أُخَيّ ... ينساها ويذكر ربه . ظني أنك قد أصبت في هواك ؟

سكتُ وأنا أرتعش غيظا أكمل سلوان:

ـ أكاد أشم كبدا تحترق غيظا لا محبة . إذن سيعافى جرحك .

قلت:

ـ سبحان الله كنت قد حذرتني منها، ولكن الحي يعشق قدره وإن كان فيه هلاكه .

قال:

ـ لا تلم نفسك فالنفوس محبب إليها العبث، ولكن الواجب ألا يطول عبثها.

أخرج سلوان قارورة طيبه، طيبني بها ثم طيب نفسه وقال:

ـ تصدقني لو قلت لك إنني كنت ملكا لدولة عظيمة ؟

أجبت صديقي :

ـ يا سلوان أصدقك في جميع أمرك .

أكمل :

...كان يحدنا من ناحية البحر، والجبال من أخرى . يأتينا الخير من كل الجهات، وقد عرفت من ترف وفضل الدنيا مالم تعرف أنت يا فارس ولن تعرف، وإن عمرت ألفاً وخمسمئة وأربعاً وخمسين سنة وشهرين ونصف نهار... هنا ضحك سلوان، وابتسمت لظرفه، بعدها أكمل صديقي بنبرة جادة :

ـ ولكن كان هناك شيء واحد عكر صفو أيامي، وهدم بهجة آمالي.

سألته :

ـ وما عسى يفسد تمام ملكك وعز سلطانك على ما وصفت من خير ؟

أجاب سلوان :

ـ الحسد يا أُخَيّ الحسد ... الناس يتحاسدون على جيف ويتعاركون على مزبلة .

كان لي أخوة كثيرون ولكني أحببت رضوان أخي، فكان لي بمثابة هارون لموسى، قربته إلي لا يفارقني أينما ذهبت، كنت لا أصبر على بعده. كان رضوان رجلاً عدلاً عفيفاً به سماحة، فسبحان المعطي بغير حساب، جبله على الرفعة في كل الأمور، وعلى قدر ازدياد حبي له وتنامي ثقتي به .كان الغيظ في قلوب بطانتي وأهلي عليه .
قالوا: لقد اصطفاه لخير كبير..لقد فضله علينا... وبلغ الحسد ما بلغ .

خرج أخي ذات يوم في رحلة صيد، وقد كنت حذرته من ذلك مرارا، لما عرفت من شرهم ولإشفاقي عليه من أن يصيبه ضرر..أعادوا رضوان إلي من رحلة صيده هذه ميتا، قالوا: إنه وقع لدى جفول فرسه عند رؤيته لثعبان، فتهشمت رأس أخي إثر ذلك .
قلت لهم:... بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ... بكيت عليه ليالي، ولكنني آثرت التجلد حتى لا يشمت بي أحد، ومرت السنون يا فارس طوالاً ما أذكر أنني أحببت فيها أحدا حبي لأخي المقتول، حتى رزقت بولد، وكان لي أولاد كثر، سميته حساناً، أحببت ابني هذا حبا جما، يا أُخَيّ والله لوقيل لي تأخذ كل دنياك وتزهق نفسك دون أن يصاب

حسان بنكد لقلت: نعم ،ثم نعم، ويبقى لي حسان هانئا...

عرف الناس حبي له وإيثاره على نفسي، فزاد غيظهم وأظهروا لي حسدهم حتى خشيت عليه فصرت أبدي له بغضا تحسبا لتآمرهم عليه ولكن ذلك لم يشفع لولدي الحبيب، ذات يوم أخبروني أنه مريض، فأسرعت إليه وبقيت بجواره أطببه ليل نهار، لا أفارقه حتى ذكر لي أحد أطبائي أنه لا بد هالك فقد تجرع سما. زادت علته، وكاد يزهق، خرجت به من القصر، فقد كرهت ذلك المكان الذي كان شاهدا على حزني وجزعي، وحملته إلى شاطئ البحر تنحدر من عيني عبرات بلا شهيق، قلت : وليدي لا يموت حبيس الأسوار بل حرا بين السماء والأرض، وفاضت روحه من ضيق الجسد لسعة المبتغى، قبل بزوغ الفجر، أدركته الملائكة وهو في حضني، أضمه إلى قلبي ...

عدت إلى قصري كسير الفؤاد وضائق الصدر. مرت سنون عدة لم أذق فيها طعم الحياة إلا كمن يتلقم الحنظل، ويعجب الناس لاشمئزاز نفسي عمّا كان يحيط بي من نعيم.

ذات يوم بينما أنا أتجول في مملكتي متفقدا لرعيتي، إذ وصلت إلى مكان سمعت فيه من يؤذن ويقول :"أشهد أن لا

إله إلا الله" دون أن يكمل، يرددها هكذا. قلت لوزيري : يؤذن مثل هذا في دار من ديار مملكتنا ! والله إنني لهالك.

طلبنا المؤذن، أخبرنا الناس أنه قد دخل بيته الملصق بالمسجد، أمرت أحد الغلمان بطرق بابه، ففتحت لنا جارية قالت : سيدي يخرج إلى المسجد الآن على رسلكم ... وما أن رأتها عيني حتى وقع حبها في قلبي، وانشغلت بها عن المؤذن والإمام والدنيا بأسرها. أغلقت الباب وبعد لحظات خرج إلينا المؤذن مسرعا يقول :

ـ عافاكم الله من تكونون ؟

فقال الوزير :

ـ ما بالك تؤذن بغير ما أمر الله، والله ليضربن عنقك قبل أن تغيب الشمس أنت وإمام المسجد الذي يتبع مثل آذانك بصلاته .

قال :

ـ سيدي ما أنا بالمؤذن أنا غلام يعمل عنده . وقد مرض المؤذن ووقع مغشيا عليه، و لم أحب أن تتأخر الصلاة، فخرجت إلى المسجد أؤذن بدلا منه . وقد هالني علو المئذنة عندما صعدت فيها، فآثرت النزول مسرعا ولم أعِ ما أقول، حتى ظننت أنني أتممت الآذان، فوالله ما أردت إلا

خيرا...

قلت :

ـ لا بارك الله فيك، ولا فيمن تركك تفعل ما فعلت أدخلنا على المؤذن حتى نرى أصادق أنت أم كذاب .

طلبت ذلك لغاية في نفسي، فقد أردت التحايل لأرى تلك الجارية مرة أخرى . ودخلنا دار المؤذن وإذا به في فراشه يرتعد من شدة ما أصابه والجارية عند رأسه، وبجوارها امرأة تمسح جبهته بخرقة .

سألتها :

ـ أنت زوجته ؟

أجابت :

ـ نعم يا سيدي .

أردفت :

ـ وأنت ؟

فرفعت الجارية عينيها نحوي ثم أجابت :

ـ أنا كما يريد سيدي .

ذهلت لجوابها وخرجت مسرعا من الحجرة وقلت للوزير :

ـ تدبر شأنه ...

تركنا القرية وأنا مشغول البال بتلك الجارية لا تغيب عني لحظة، بعد أيام سألت الوزير :

ـ ما شأن المؤذن ؟
قال :
ـ قد مات سيدي .
قلت :
ـ وزوجته ما فعلت ؟
قال :
ـ هي كما تركناها في دارها .
قلت:
ـ اسألها أن تبيعني الجارية التي رأيت . وأعطيته مالا كثيرا.
قال الوزير :
ـ هذا كثير يا مولاي .
قلت :
ـ لعلها تنتفع به ...
قال :
ـ جزاك الله سيدي كل الخير.
عاد إلي الوزير وقال :
ـ سيدي لم تقبل زوجة المؤذن وذكرت أن الجارية أعز عليها من أن تبيعها إياك، وإن كنت ملكا.

قلت :

ـ اذهب إليها بضعف ما كنت أعطيتك .

عاد بمثل الجواب الأول . زدت المال ولم تقبل زوجة المؤذن بيعها ،

قالت:

ـ إنها بمثابة الابنة حيث إنه لا ولد لها. احترت في أمرها سألت قاضياً لي المشورة، فقد تعلق قلبي بالفتاه .

قال :

ـ أجد لك مخرجا إن شاء الله .

قلت :

ـ إن فعلت فلك جائزة .

عاد إلي القاضي وقال :

ـ هي لك يا مولاي .

سألته :

ـ كيف صنعت؟

قال :

ـ ... سألت لو أنها كانت ملكا لزوجها قبل موته أم لها.

قيل لي : بل لزوجها .

سألت إن كان له إخوة، قيل لي : نعم . ثلاثة ذهبت إليهم

وسألتهم عن إرث المؤذن كيف قسم ؟ قيل لي إن أحدهم كان غائبا فلن يقسم الإرث حتى يعود، قلت هذا لا يجوز وقمت على تقسيم المال بنفسي، وبقيت الدار والجارية قلت : لا بد من بيعهما، وتفريق المال على مستحقيه، وأحفظ نصيب الأخ الغائب في دار القضاء أمانة حتى يعود . فقبل الجميع إلا الزوجة قلت لها وقد عرفت من الناس أنها كانت زوجة سوء يسكنها الطمع : ليس لك إلا القبول فوالله ما جمع من طمع إلا الخسران، كان الأفضل قبولك هبة الملك قبل اليوم .

أتتني الجارية، و صارت أعز وأحب الناس إلي لا سلوة إلا معها، ولا أُنْسَ إلا بها، ومرت الأيام عذاباً بوصلها حتى أتت ليلة كنت فيها أسير في أروقة قصري، إذ سمعت من يهمس : صارت عليه أغلى من نفسه، عما قريب يفقدها. هنا خطر في نفسي : يكاد لنا الشر ونحن غافلون .

طلبتها وجلست إليها، وأنا مهموم سألت :

- ما بال سيدي صامتاً فدته نفسي .

قلت :

- بل أفديك أنا يا راح يخالج خاطري ظنون نحس .

سألت :

ـ وما تكون سلمتَ مولاي واغتم عدوك .

قلت :

ـ أخشى عليك من الحساد .

قالت :

ـ لا تخف .

قلت :

ـ لا بل لابد وأن أخاف، فكم أخذ الحسد مني حبيباً .

بعدها أخبرتها بأنني عزمت على إبعادها عن بلاطي حتى تنجو من كيد الكائدين . وأرسلتها رغماً عني إلى بلد تبعد كثيرا عن مملكتي، وقد أعطيتها ما لا يحصى من مال وعتاد .

ودعتها وقد أحسست بأنني قد أبقيت على حياتها، وكان ذلك بمثابة عزاء لي على فراقها، ولكن بتتابع الأيام سئمت نفسي العيش وصرت في ضيق شديد لا أقدر الهروب منه . حدثت نفسي ... أغالب فيك الشوق والشوق أغلب ... فقد داهمتني جيوش الأحزان، وكاد الأسى يقتلني، فما جدوى ملكي دون من ملكت قلبي، فعزمت على التخلي عن ذلك الذي أفقدني كل حبيب، وأمسيت فيه وحيدا أسامر غربة روحي . فلا راحة لي دون

راح .

تنازلت عن حكمي لولدي وتركت المكان إلى حيث راح حبيبتي أخذت معي شيئا واحدا من كل عزي : جوهرة واحدة، ياقوتة عظيمة كنت أحب النظر إليها ، ما كان لها في الدنيا مثيل، من ياقوت جزر السرنديب . خرجت من مملكتي، وقد حط من قلبي النكد يوم خرجت، سرت حتى وصلت مكاناً فيه شجر كثير جلست أرتاح فيه فإذا برجل يمر بي ثم يقول :

ـ يا مسلم هلا تقاسمت معي بعضا من زادك ؟ فقد نَفِدَ زادي والطريق طويل، فأحب الراحة عندك اليوم .

قلت :

ـ حياك وحباك يا عم تفضل .

ثم قدمت له ما كان عندي، بعدها صلينا وجلسنا نتسامر، فوجدته على أحسن ما يكون عليه إنسان من حكمة وفطنة ولطف .

قال :

ـ والله يا هذا إن فيك لأدب الملوك .

قلت :

ـ ما تقول في امرئ زهد في ملكه ؟

أجاب :

ـ أقول له إنه لما أهبط الله أباه آدم وأمه حواء إلى الأرض، ووجدا ريح الدنيا، وفقدا ريح الجنة غشي عليهما أربعين يوما من نتن الدنيا .

ثم ناولني عصاه وقال :

ـ هذه لك جزاء معروفك، انظر بها فتحة يمكنك أن تضع بداخلها ما تخشى ضياعة .

وكشف لي الموضع ثم شكرني وأكمل :

ـ لا بد لي من مواصلة السير .

قلت :

ـ لو بقيت فالليل غاشم ...

قال :

ـ لا بل أتركك في أمان الله ...

جعلت أنظر إلى عصاه، ثم فكرت لو وضعت الجوهرة فيها، فأدخلتها واختفت في مخبأ العصا . في اليوم التالي بينما أنا سائر إذ هاجمني لصوص جعلوا يقولون : اخرج لنا المال .

فأخرجت لهم دراهم ثم جعلوا يفتشون متاعي، فلا يجدون شيئاً ولم يخطر لهم ببال ما كان مختبئا في عصاي، بعد ما أيقنوا أنه ليس لدي شيء يرجى، تركوني ومضيت إلى وجهتي غير مبال، فكان جل همي الوصول

إلى راح .

عندما وصلت البلدة التي بها راح سألت عنها فدلني رجل على دارها، وقفت عند بابها ثم طرقته بعد أن التقطت أنفاسي، فما إن وصلت لدارها حتى صار قلبي يدق، وكأنه فرس جامح من شدة ما كان بي من شوق لرؤيتها، بعد هنيهة فتح الباب رجل سألني:

ـ من أنت ؟

قلت :

ـ أخبر راح أن سيدها بالباب .

تعجب الرجل وقال :

ـ ابق هنا .

ثم عاد وقال :

ـ تقول سيدتي يمكنك أن تدخل .

فدخلت إلى المكان، وقد كان على أبهى ما تكون عليه الدور، جلست وكاد الشوق يفتك بي، وما هي إلا لحظات حتى دخلت علي راح، لدى رؤيتي ألقت بنفسها عند قدمي، تقول :

ـ عدت إلي فدتك نفسي .

قلت لها :

ـ تركت كل شيء لأجلك يا راح، تركت كل شيء

لتسلمي ...

ابتسمت راح . حدثت نفسي وقلت أخيرا تسعد يا سلوان ما أحسن نيل المنى . قدم لنا الطعام وما إن جلسنا حتى سألتني راح :

ـ أين جندك؟

قلت :

ـ تركتهم .

قالت :

ـ أين متاعك ؟

قلت :

ـ مالي متاع سوى عصاي . تركت كل شيء لأجلك يا راح، أتيتك بنفسي وقلبي ...

قالت وهي مبتسمة :

ـ وما فعلت بملكك ؟

أجبتها :

ـ لا تسأليني عن ملك يفنى ...

قالت :

ـ أنا أسألك عنه بعينه يا حبيبي .

هنا سكت لبرهة ثم أجبتها :

ـ قد أغنيتك عنه .

قالت :

ـ حدثني بأمرك .

فحكيت لها قصتي، بعدها قامت راح وقالت :

ـ ما أنا فاعلة بك، وأي إبليس أشار عليك بهذا ؟!

قلت :

ـ سبحان الله ! أحبك يا راح .

قالت :

ـ بل أتيت لتأخذ ما أعطيتني بعد أن أخرجتني كالطريدة من قصرك، فلعلهم خلعوك لسوء تدبيرك أمور دولتك، وتأتيني اليوم تريد خداعي بحبك .

بعد ما سمعت منها ما سمعت خرجت من دارها مصاباً بحسرة، دون أن أجيبها فقد كان ما ذكرت أعظم من أن يجاب...

وسرت لا أقدر أن أتكلم، لن أذكر لك يا فارس ما حدث لي، وما وقع علي من عذاب عندما عدت إلى ابني، وقلت له: عاد أبوك ليسكن بينكم أبا تبره وأنت ملك تطاع .

يا فارس تظن أن الناس تركوني وشأني ؟ حبست وعذبت لأجل شيء قد زهدت فيه، وسئمت منه فمنهم من

قال: إن تُرك طالب بما كان له... وآخرون يشيرون: إن قتل يعظم شأنه ويكبر في قلوب الناس، وتصير عاقا مبغضا... والله لقد عجبت من فرط الخيانة، فيمن ظننتهم أوفياء وزيادة التشفي فيمن ظننتهم رفقاء، انقلب الناس فما وجدت منهم إلا ضغنا، القريب منهم والبعيد، قلت سبحان الله حسد عند النعمة، وظلم عند الضعف، فلم يشفق علي إلا ثوبي الذي ستر جسدي الواهن، وعقلي الذي هون علي مالا يهون، وصبر أفرغه الله علي .

تمكنت بعد طول ظلم من الهروب، خرجت أكاد لا أصدق ما عشت، و جعلت أسائل نفسي : أهكذا تكون الدنيا ؟ حمدا لله أن عرفني بها قبل أن يخشع بصري .

أرهقني فرط الضيم، وسرت لا ألتفت حتى وصلت إلى خربة، جلست عند سورها، و قد تهدم جزء منه واضعا يدا على رأسي قلت: أضعت كل شيء، أضعت كل شيء... فبينما أنا كذلك إذ سمعت هاتفاً يقول :

... يا عبد الله أنا لبنة من هذا الجدار الخرب استنطقني ربي، اعلم أنني كنت ملكا مثلك ملكت لألف سنة، ثم مت وصرت رميما ألف سنة، ثم أخذني خزاف وصنعني إناء استُعملت لألف سنة، حتى تكسرت وصرت ترابا لألف سنة، ثم أخذوني وعملوني لبنة وأنا في هذا الجدار، فما كان كل

ذلك إلا كحلم نائم فمن سمع بقصتي لا يغتر بدنيا .
خرجت راح من قلبي بعد أن أخرجتني من مملكتي، ودخلت إلي سكينة ما ظننت أن مثلها توجد يا فارس، تحول القلب وشغلت بأمور طال غيابها عني، وملأت حياتي بشرا وتقى . صرت من "حملة القرآن وأصحاب الليل". فسبحان من لا يشغله شيء عن شيء .

وقد نبهتك يا فارس ألا تقرب تلك المرأة فلعلك قلت يا أُخَيّ: ما يعرف هذا الدرويش المجنون ؟

أجبته :

ـ حاش لله أن أفكر فيك بمثل ما قلت، فأنت من أشراف الآخرة يا سلوان وملوكها.

قال :

ـ قم يا حبيبي قم وانظر ما في عصاك .

سألته :

ـ الجوهرة ؟

أجاب :

ـ نعم الآن عرفت يا أُخَيّ على ماذا كنت أتوكأ ؟! بعها وتاجر بمالها، فلعلها توصلك إلى الوفاء بعهدك .

هنا وقف سلوان وقال :

ـ الآن يا أخي أستودعك الله لن تراني بعد اليوم، ولكن

متى ذكرتني قل: غفر الله لصاحب العصا ...

قلت له :

- والله يا سلوان إن معرفتك حياة بأكملها. ويعز علي فراقك..

سلمت عليه ثم تركني وغُيِّبَ عن عيوني بحجاب من الدموع .

بعت الجوهرة، وتاجرت بمالها، وقد بارك الله لي حتى إن التجار أطلقوا علي اسم فارس التجار، وزادت تجارتي فصرت كبيرهم، وذلك كله في وقت وجيز، وأتى اليوم الذي طالما عملت له، والذي فيه عزمت على فك صديقي من أسره .

جمعت المال، وأعددت الرجال، وقمت إلى راحلتي ما كادت رجلاي تحملني، فقد عاودتني أحزان الماضي كلها، وصارت تدق عافيتي وهواجس تقول:

... تأخرت عن رفيقك وتركته في الجحيم ... ولكنني بعد ما قطعت زمناً من السير أتتني أفكار رضية هنية تقول :... عن قريب تفك أسر حسين، وتعطية نصف مالك، بل كله فيعيش هانئاً ويعود لأهله، فيسعدوا به، ويجبر كسرهم، ولا بد للأيام أن تمحو جور الماضي، فيذكرها صديقك، ولعله يحكيها لأولاده وهو مبتسم وهكذا...

بعد سير طال أنخنا مطايانا في مكان لا يبعد عن منجم النحس، أشعلنا النار، وجلس الرجال حولها يتسامرون، أحسست بضيق شديد، أظن ذلك لقربي من ذلك المكان المشؤوم فخرجت أمشي تاركا صحبي، وقد كانت ليلة مقمرة أضاءت المكان .

وبينما أنا أخطو وتجمح بي الأفكار إذا بي أرى من على بعد رجلاً مقبلاً علي، وقفت مكاني حتى بان لي، رأيته يمشي نحوي، أسرعت إليه مستبشرا وناديت :

ـ يا أخي ها أنا ذا لم أنسك عدت يا حسين لاخراجك ... أطلقوك ...أطلقوك !

قال :

ـ يا فارس أنا طليق الرحمن ... أطلقني من محبسي .

قلت :

ـ حمدا لله .

وضممته إلي فما أذكر أنني سعدت بلقاء مثلما سعدت بلقاء حسين، وكان على أحسن حال ...

نظرت إليه وقلت :

ـ والله يا أخي كأن الزمان قد أحسن إليك يا حسين، فما أبعد الحال من الحال ليتني تركتك بمثل ما لقيتك اليوم. وددت يا أخي لو عـــجلت إليك، كم وددت ذلك يعلم

الله...

ولم أقدر أن أكمل وفاضت عيناي .

قال :

ـ يا فارس لا عليك أعرف ذلك .

قلت :

ـ تعال معي الآن إلى حيث المخيم، المكان غير بعيد .

قال لي :

ـ عد أنت وأنا إن شاء الله سألتقي بك بمن معي، لأحكي لك ما حدث لي مذ تركتني .

أجبته :

ـ والله لا أطيق فراقك ثانية يا حسين، وإن كان اللقاء قريباً .

هنا ابتسم حسين، فوالله كأنما أنوار الدنيا كلها أضاءت وجهه عندما قال :

ـ اعلم يا فارس أنني لن أخلف موعدي إن شاء الله .

قلت :

ـ الرأي رأيك يا حسين ولكن تعجل .

عدت لرفاقي مسرعا، فقد أحببت أن أجهز لقدوم حسين وصحبه وليمة، وما كادت تسعني الفلاة من نشوة خاطري.

جعلت أنتظر حسيناً أن يأتي، فلا يأتي، طال انتظاري له . قلت بعد زمن : هيا بنا نبحث عنه، فلعل شيئا حال دون قدومه . أمضينا أياماً في البحث دون جدوى قلت : لنذهب إلى جبل الذهب، لعلهم يعرفون أين يكون . وعزمنا السير إليه . دخلت المكان لأجد الناس على حالهم من هوان وبينهم عبيد الذي عرفته ولم يعرفني .

ناديت :

ـ عبيد !

نظر إلي وقال :

ـ نعم سيدي .

سألته :

ـ أما عرفتني ؟

أجاب :

ـ لا !

قلت :

ـ أنا فارس .

قال بدهشة :

ـ فارس ! والله ما أجود زمانك عليك وأفسد زماننا علينا .

قلت :

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان

سألني :

ـ ما الذي أعادك إلينا ؟

قلت :

ـ عدت لتعرفوا كيف يعيش الأحرار. أين أخي حسين ؟

سأل :

ـ حسين من ؟

قلت :

ـ سبحان الله ! الفتى الحزين الذي ما كان يبتسم، قابلته منذ بضعة أيام، وتواعدنا ولكننا فقدنا بعضنا البعض . هل عاد إليكم أو سمعتم بمكانه ؟

نظر إلي عبيد بتعجب . قلت بامتعاض :

ـ تكلم !

أجاب :

ـ نعرف مكانه ولا يعود الأموات، فكيف يعود حسين إلى هنا ؟

صفعت ناصيتي وصرخت :

ـ والله إنك لنذير شؤم متى ؟ متى ؟

ثم جررت الرجل من ثوبه . أجابني وهو خائف من فرط غضبي :

ـ مات حسين بعد أن هربت أنت لأيام .

قلت :

ـ وأين دفن ؟ خذوني إليه .

مضينا للمكان الذي دفن فيه رفيقي، وبقيت عند قبره تحت جنح الليل أبكي، وأدعو لحسين وقد تركني القوم .

في اليوم التالي خرجت أطلب صاحب المنجم، فقد عقدت العزم على شراء هذا المكان المشؤوم، عرضت عليه بيعه وافق صاحبه، وأنفقت جل مالي في شرائه، ثم قمت بعتق العبيد جميعا ومنهم عبيد قلت لهم :

حمدا لله أن كان بينكم مثل حسين ، فطالما انتظرتم فضلا من سجان .

بعدها جعلت المكان وقفا لوجه الله، وطلبت له العمال أجريت لهم أجورا، وبنيت مسجدا، ومساكن وقد خصصت ريع الذهب لفك الأسرى وعتق الرقاب ... سميته وقف حسين طليق الرحمن...

قيل لي فيما بعد إن قرية قامت وازدهرت بقرب المنجم، سميت بقرية حسين الطليق .

قلت : سبحان الله ! يقتلون المرأ ولا يقتلون ذكراه.

كنت قد نويت العودة لسُلْيَّى، وإن لم أجد كتابها الذي أخذت، وذلك حتى أكاشفها بحقيقة ما حصل مني، وأطلب منها أن تحللني من جنايتي، لعل ذلك يشفع لي، فقد تبين لي أنني لن أحصل على ذلك الكتاب مهما طال البحث، وجد الترحال .

سرت حتى وصلت للميناء الذي كنت قد قابلت فيه مرادا، وبقيت عنده أنتظر مركب العطاء، بعد أسابيع مرت رست مركب العطاء، وذهبت للقاء مراد، وقفت عند المرسى وصرت أنادي :

ـ السلام على من في العطاء ورحمة الله وبركاته.

وما كانت إلا لحظة حتى سمعت من يقول :

ـ وعليك السلام يا فارس أين فرسك ؟

ثم ظهر لي مراد يشير إلي بكلتا يديه، ويضحك جذلاً.

قال :

ـ يا فارس حمدا لله، كتب لنا لقاء يا فارس ما أسعدني بك .

طلعت إليه، فضمني وصار يضرب على ظهري بيده ويبكي .

قلت :

ـ والله مراد ما ظننت أنك تحمل لي كل هذه المودة !

أجاب :

ـ كأنك لم تغفر لي بعد رميك في البحر يا فارس ؟!

وصار يضحك ثم سألني :

ـ هل وجدت رداءك ؟

قلت :

ـ بلى وجدته ثم أضعته .

قال :

ـ هكذا تكون عطايا الدنيا لا عليك .

قلت :

ـ له يا أخي مراد اجلس أريد أن أفصح لك عن شيء .

قال :

ـ أحسب الأمر ذا شأن !

قلت :

ـ وأي شـأن يا أخي، فـلا بد لك أن تعـرف مـا جنيت، وسعادتك بلقائي زادت من همي ...

نظر إلي مراد ووضع يدا على خصره ثم قال :

ـ تكلم يا رجل .

فحكيت له القصة قال :

ـ الآن كشف لي سر الرداء . لا بد من إخبار سُليَّى .

أخذني بعدها إلى حجرتها ، دق الباب، ثم دخلنا فإذا سُليَّى تجلس أمام النول تحيك سجادتها . قامت وسلمت ثم قالت :

ـ مرحبا بفارس، تعال واحك لي ما الذي أعادك إلينا، ودّ أم ذنب ؟

قلت :

ـ سبحان الله! بل ذنب أريدك أن تغفريه لي .

هنا سحبت سُليَّى كيسا ، وأخرجت منه كتابا ، وضعته أمامي فإذا به كتابها الذي أخذت، ثم قالت :

ـ هذه بضاعتنا ردت إلينا.

سألتها باندهاش :

ـ كيف وصل إليك ؟

قالت :

ـ أحسبت أنك خرجت من أجل كتاب؟ لا بل خروجك كان من أجل نفسك، وكلانا وجد ما كان مقسوما له من غير زيادة ولا نقصان . قد حللتك، اتركاني وعملي .

سلمت عليها، وأمضيت الليلة في صحبة مراد. في اليوم التالي قال لي مراد :

ـ هل تعود إلى أهلك؟

قلت :

ـ بل أنا عائد إلى من صار أعز الناس إلي . والعجب يا مراد أنني ما عرفته إلا يوما وليلة .

سألني :

ـ من يكون ؟

قلت :

ـ توبة بن علي السالمي .

في اليوم التالي ودعت مرادا وبكى لوداعي كعادته .

قلت له :

ـ علام تبكي يا مراد ؟

أجاب :

ـ وكيف لا أبكي عليك وأنت ماض تطلب رجلاً قابلته يوما، ولا تعرف له مكاناً !

تركته ومضيت أبحث عن توبة، وأنا على يقين بأنني سأجد الرجل الذي غبت عنه سنين، وكان كما ظننت فقد وجدت توبة، وبعد ما لقيت صديقي، وسعدت به قلت له:

ـ ألا أخبرك بحالي بعدك يا توبة ؟

قال :

ـ أخبرني يا فارس .

قلت :

ـ عندما انصرفت من عندك داهمتني الدواهي، فكنت كمن يستنجد من الرمضاء بالنار، بل أنكد والله وأنكى .

قال :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

وحكيت له ما جرى لي بعدها قلت له :

ـ الآن أتيت لكي أسمع قصتك ولا أبالي إن أبقيتني عندك الدهر كله .

ابتسم توبة وقال :

ـ يا فارس أنت تعرف أنك لو أقمت عندي بقية عمرك ما وجدتني إلا كما تحب، سأحكي لك قصتي كما أردت الآن .

ويدأ توبة قصته التي حان الوقت روايتها...

قال :

ـ اسمع يا فارس في زمن بعيد كان يسكن أرضاً واحدة

رجلان، يقال إنهما اقتتلا فقتل كل منهما الآخر و لا يذكر أحد السبب لعراكهم، ومن ذلك العراك المشؤوم، نشأت عداوة ضارية بين عشيرتيهما، واستمرت العداوة حربا لسنين، هلك كثير من الخلق وفسدت الأرض، حتى أجمع القوم بعد أن سئموا الموت ووقع البلاء، على أن تقوم كل عشيرة باختيار فارس يحمل رايتها في كل سنة، ويكون ذلك في نفس اليوم الذي وقع فيه القتل، فيخرج الناس جميعا إلى مكان قد حدد سمي بروضة القصاص، يتبارى فيها الفارسان كل يحمل راية قومه، فإن قتل أحدهم يعزي القوم عشيرة الفارس القتيل، ثم تقوم الأخرى بواجب الضيافة، وذلك حقنا للدماء وهكذا.

ولكن حدث أن مرت عشر سنوات قتل فيها فوارس من عشيرة واحدة دون الأخرى التي لم يصب منها واحد .

ثقل ذلك على عشيرتي حتى ضاقت الناس، لولا عهود غليظة قد أخذت، ومواثيق قد عقدت، وأتى اليوم الذي فيه قتل الفارس العاشر من قبيلتي ...

وإذا بصبيين يطلقان حجرين من نبلتين غدرا، أصاب أحدهما العين اليمنى، والآخر العين اليسري لشيخ العشيرة الفائزة، فمات ... فقد كان بين الفوارس العشرة الذين قتلوا عمٌ لهما وخال وثلاثة إخوة آخرهم هذا الذي مات

... فلعلهم حسبوا أنهم يحسنون فعلا.

كادت تقوم الحرب في الحال، لولا أن أجمع الناس على أن ينتظروا أبا الصبيين، وقد كان غائبا حتى يرجع، ليتدبروا أمر القصاص والدِّية .

ولم يكن قد أتم أكبرهما بعد العشرة أعوام من عمر الدنيا.

مرت سنون ولم يعد الأب لعله علم بأنه إن عاد قتل ولداه، وشب الولدان فكانا على أحسن ما يوصف به امرؤ من كمال وشجاعة وحسن حتى إن أهل العشيرة التي قتل شيخها شهدوا لهما بالنجابة والجود.

فكما قيل:

وشمائل شهد العدو بفضلها

والفضل ما شهدت به الأعداء

حدث أن أحد الإخوة يقال له عبدالله كان عاشقا لابنة عمه منذ أن كانا صغيرين، كانت فتاة ذات جمال وفصاحة تسمّى رباب، فرأت أمه أن تزوجها إياه، فتقدمت لخطبتها، وما إن وصل خبر الخطبة إلى أهل العشيرة المقتول شيخها حتى غضبوا، وقالوا:

" يحفلون ولم يجف الدمع بعد على شيخنا وكبيرنا ! "

وهاجت العداوة، وكادت تكون حربا . اجتمع حكماء القومين واستقر الرأي بألا يقتل الشابان، بل يطردان وأن يزوج ابن الشيخ المقتول من رباب .

طردنا من بين أهلنا أنا وأخي عبد الله ...

هنا سألت توبة متعجبا :

ـ أنت كنت ذلك الصبي القاتل ؟

ابتسم توبة وقال :

ـ نعم أنا وأخي ... وأخذ يكمل قصته : تركنا ربوع الصبا والعشيرة وسرنا بعيدا ... قالوا لنا :

ـ الأولى بكما أن تنأيا بشروركما عنا.

قلنا :

ـ الموت أهون يا إخوان من هذا الخلع .

أجابوا :

ـ إذاً موتوا بعيداً عنا...

قلت له :

ـ ياتوبة ما أقسى قومك . ليتهم تجملوا في حكمهم دون الإهانة لك وله . فما فعلتم ذلك إلا محبة وجهلا...

أجاب :

ـ يا فارس هذا حال الدنيا . أيؤخذ أقوام بجريرة جهال وإن كانوا محبين ؟ فلم يكن لنا إلا أن نلبي نداء العار الذي

أتى الوقت لتلبيته . فإرث الفارس انقلب إلى تركة المهان. الأفعال نسب يا فارس كما الآباء والأجداد . وقد انتسبنا إلى الشر.

بقينا أنا وأخي وحيدين نسامر المدى والزمان.. وعشنا في فلاة إن صادفنا أحد قلنا أتى هذا من الدنيا . زادت العلات على أخي الذي ما فتئ يذكر رباب، فكانت له السعادة والشقاء والعافية والبلاء...

أما أنا فكنت أبرد وأجوع ويصيبني الحر والملل، أعيش حياة الشقي الطريد دون رباب أتغنى بها... كان إذا صادف عبد الله أحدا يسائله عن أخبار رباب كيف هي؟ وأين هي؟ وما سمع عنها؟ فيزيد غما وحزنا وكنت أقول له تجلد يا أخي . فيقول:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكنا

زاد سقم أخي بالبعد عنها، حتى ظننت أنه لا محال هالك تركته في غار كنا نسكنه، وخرجت أتخبط في حيرة وخوف ماذا لي أن أفعل لأبقي على حياة أحب الناس إلي وكل صحبي وعزوتي ...؟!

سرت إلى منازل قومي أطلب العون علهم يعيدونه

فيموت بينهم . ولكنهم قالوا عندما رأوني : هاك كلب العشيرة عاد إلينا.

لم أحتمل ورجعت إلى أخي دون أن أظهر لهم لهف نفسي عليه، وقلت : يموت رجلاً في غار، لا كلبا في قصر .

وقد أخذت عهدا على نفسي ألا أنظر إلى أحد منهم حيا بعد اليوم . وصلت الغار، وأخي يلفظ آخر أنفاسه، ويئن رفعت رأسه وقلت :

ـ يا أخي إن مت تركتني وحدي أحمل ذنبي وذنبك فلا تتركني ... يا أخي انصفني بحياتك .

أجابني عبدالله :

إذا عقّد القضاء عليك أمرا

فليس يحله إلا القضاء

سامحني يا توبة !

مات أخي، فدفنته في الغار. بعدها خرجت منه يلفني الدجى، فإذا بقمر يملأ السماء ضياءً نظرت إليه وقلت : وحق من علاك وأضناني، كأنك طلعت الليلة لتضيء لي دنياي من دون البشر أجمع . وحق من أنار بك ليلي هذا الأظلم، إني لا أبالي بصروف الزمان فما هي إلا أيام تمضى، وأحلام تفنى وأجساد تبلى ...

وصرت أنشد :

أسأل الله إذا جنني

ليل وأضناني يوم عصيب

رب كما أنك أنقذتني

فنجني إنني فيهم غريب

الغربة صارت الدنيا بكل أهلها، توحشت طباعي ويبدو أن الزمان غير وجهي، فلو صادفني أحدُهم لم يعرفني .

ذات ليلة نمت، فرأيت أخي في منامي، ولم أكن قد رأيته في منام منذ أن مات قلت له :

ـ هنَّاك يا أخي ! أتيت !

قال :

ـ لقد مت اليوم يا توبة .

قلت :

ـ لا يا عبد الله بل منذ خمس سنين !

قال :

ـ بل اليوم .

سألت :

ـ كيف ذلك ؟!

قال :

ـ اليوم عرفت رباب بموتي .

اذهب وقل لها :

سقى الله أيام التواصل غيثه

ورد إلى الأوطان كل غريب

فلا خير في دنيا بغير تواصل

ولا خير في عيش بغير حبيب

عزمت على إيصال رسالة أخي إلى رباب، وإن كان الموت دونه وخرجت طالبا لها، و ما إن وصلت إلى مشارف ديار زوجها حتى سألت غلاماً عن دار رباب، فأشار إلي بمكانه . مشيت إلى دارها، ولم يعرفني أحد فقد لوح الزمان وجهي وبينما أنا أقترب من دارها رأيت امرأة تقف عند بابه تنظر إلي ولا تتحرك، فجأة أسرعت نحوي تنادي :

ـ عبدالله ؟! عبدالله ؟!

عرفت أنها رباب وقد ظنتني أخي عبد الله .

قلت لها :

ـ لا يا رباب بل توبة .

جعلت تبكي وتقول :

ـ لو أنك هو ترى ما كنت أنا فاعلة ؟! ليته حيٌّ وإن كان بعيدا .

نظرت إليها وقبل أن يرتد لي طرفي أحسست وكأن حبها قد انتقل إلى مهجتي، وكدت لا أذكر لي حياة قبل تلك اللحظة التي فيها ولد قلبي .

قلت لها :

ـ أنا رسول عبدالله إليك .

قالت :

ـ وأي رسول للأموات أنت !

حكيت لها الحلم، وجعلت أطيل في الحديث حتى أستأنس بقربها فلعلها ملت من حديثي إن سكت عن ذكر عبدالله .

قالت:

ـ خذني إلى قبره يا توبة .

عجبت من طلبها ، وأجبتها بأن الأفضل أن تبقى، فالقبر بعيد، وأخشى عليها غضب زوجها إن عرف. قالت :

ـ سنذهب الليلة .

خرجت إليّ رباب وسرنا إلى حيث الغار الذي به قبر أخي .

قالت :

ـ اسرع يا توبة حتى لا يمنعني أحد عنه، بعدها لا أبالي ...

وصلنا إلى الغار دخلت رباب، وجثمت عند قبره تبكي وتحادثه وأنا أنظر إليها تارة، ثم أدعو ربي أن يعافيني من حبها تارة أخرى .

بعد زمن التفتت نحوي وقالت :

ـ عد بي يا أخي فلا تجيب الرُّفاتُ وإن كانت لحبيب .

قلت في نفسي :

ـ أو صار لك ميت يا رباب ؟! قد جاوبك قلبي لو تعرفين .

مضينا وبكل خطوة كنت أخطوها نحو ديار زوجها أحس وكأن طودا من الأحزان قد ألقي على كاهلي، وأثقل مسيري ... أما هي فتمشي وكأنما هبوب الصحراء تدفعها وتسيرها لرقتها وخفة خطاها، تمشي رباب ولا تحادثني وأنا صامت مهموم، عندما وصلنا إلى مشارف ديارهم أشارت إلي بأن أقف .

قلت :

ـ لن أتركك حتى أطمئن .

ضحكت وقالت:

ـ مم تخشى علي ؟ أن يقتلني زوجي ؟

قلت :

ـ أويفعلها الكلب ؟

قالت:

ـ إنه ليس بكلب، الكلب أسعد منه . هو لا يحسب لي روحا حتى يقتلني، ارجع فقد نجاك الله منا ، واعرف يا توبة أني ماضية إلى حيث أريد .

سكتت وطأطأت رأسها ثم قالت برفق :

ـ لا تحزن علي يا توبة . ابتعد من هنا. . . عد إلى أمانك .

ودعتها وتركتها وحدها لكنني كنت ألتفت لأتبعها ببصري، وهي تنأى عن ناظري فإذا بي أرى رجلين يخرجان إليها فكرت : هي في خطر ليتني ما تركتها.

رفع أحدهما سيفا وهوى عليها ، وإذ بها تسقط قتيلاً، أحسست بأن الدنيا اسودت من حولي، غشي علي، ولم أنتبه إلا وأنا مستلق يحيط بي أناس لا أعرفهم، يقولون : " قد أفاق ! لعله يعيش ؟"

هنا سألت توبة :

ـ وماأدراك أنها ماتت يا أخي ؟

ابتسم توبة وقال :

ـ والله لا يسأل هذا السؤال إلا رجل مثلك يا فارس ! لن

أجيب .

قلت :

ـ معذرة.

قال:

ـ لا تعتذر.

سألته :

ـ إذاً صفها لي يا توبة ... كيف كانت رباب ؟

قال توبة مبتسما :

ـ تريد إسعادي بسؤالك هذا يا فارس .

أكملت :

ـ صفها إن قدرت .

أجاب بعد تأمل :

ـ هي يا أخي كما قالوا... أرق من الهواء، وأطيب من الماء، وأحسن من النعماء، وأبعد من السماء...

سكت توبة . طأطأ رأسه ثم قال :

ـ اتركني الآن يا فارس ... هنا غلبت الشقوة على صاحبك .

قلت متعجبا :

ـ ظننتك يا صديقي قد فات عنك أحزان بني البشر.

أكمل وهو قائم عني :

ـ وإي شيء أصعب مما يحيف بنا في دنيانا على هوانها، ولكن التجلد ستر للمضنى فلا تعجزني .

نأى عني توبة . في الليلة التالية قال لي :

ـ يا فارس أرى أن أطلعك على شيء ...

سألته :

ـ هل لك أن تكمل لي القصة ؟

أجاب :

ـ أجل ولكني وددت أن أعرفك أمرا.

قلت :

ـ نعم ولكن بعد أن تكمل ما بدأت في أمسك .

قال :

ـ كما تريد وينبئك الأمر حدوثه ... أفقت بعد ما غشي علي، والحسرة تخنقني أردد: ليتني ما تركتك يا رباب ... فإذ الجماعة الذين أحاطوا بي لا أعرفهم، ولا يعرفونني وإنما كانوا سيارة وجدوني وهم في طريقهم، فأخذوني معهم، وأنا كالميت .

عدت مسرعا إلى حيث ديار رباب فوجدتها قد درست، وارتحل الناس عنها، بحثت عنهم حتى وصلت إلى الوادي الذي رأيتني فيه، عرفت أن حربا نشبت بين العشيرتين

بعد قتل رباب أفنتهم جميعا، جئتني أنت ... وأنا أدفن قتلاي .

سكت توبه، ثم أضاف كأنه يحادث نفسه :

ـ يا فارس كأنما قد اشتاق إليها عبدالله، فبعثني برسالته تلك حتى تأتيه .

قلت :

ـ والله يا أخي يبدو أنه اشتاق للعشيرة كلها كي يأتوه .

هنا ابتسم توبة، ثم أطرق ينظر إلى الفلاة. لم أتمالك نفسي وقلت له :

ـ مسكين يا توبة .

التفت إلي وقال :

ـ أشفقت علي؟ يا فارس ما أنا إلا سائر أمشي هونا فتطأ قدماي مسكني ومثواي، تحسب هذا الثرى ترابا ؟

وقبض قبضةً من تراب ثم قال :

ـ أنت في حلم ... هذه الحقيقة . ورماني بها. ضحك بعدها قائلا :

ـ وهاك قبضة أخرى !

رفع يده نحو السماء أمسك بنجمة جعلت تتلألأ في كفه، ثم ألقاها في حجري وسأل :

ـ من المسكين ؟ ألا ما أحقر من كانت قبضة يده دون عالمه

الذي خلق لأجله .

أكمل وهو قائم عني :

ـ قد اشتقت يا أخي لنفض غبار الأيام عني...

تركني... لم أقدر أن أتحرك بعد مدة، سرت إلى حيث سار، فوجدته يصلي. سلم ثم استلقى على يمينه ولم يتحرك . اقتربت منه فوجدت أنه قد مات .

حملته إلى حيث الغار الذي به أخوه عبد الله، ودفنته بجواره .

وقفت عند مدخل الغار، فإذا بقمر يملأ السماء ضياء هنا تذكرت قول توبة : وحق من أنار بك ليلي هذا الأظلم إني لا أبالي بصروف الزمان فما هي إلا أيام تمضى، وأحلام تفنى، وأجساد تبلى.

التفت فإذا بالنور يفيض إلى داخل الغار ليكسو قبر توبة بسناه.

وددت لوأنني رأيت رباباً. رحم الله عشاقها...

كتبتها الراجية رحمة ربها مها

أذهب الله عنها الغفلة

والأسى

وإذا صح لي أن أقول في رواية «توبة وسُليّى» شيئاً قلت إنها -دون تردد- تمثل طليعة لاتجاه جديد في الرواية، كنت أتمنى أن أكون من أوائل من اكتشفوه...

إحسان عباس

تؤكد هذه الرواية فيما خلصت إليه من قراءتي لها أن الأدب الحقيقي هو إبداع الآساطير التي تترجم عن جوهر النفس البشرية.. على أن «توبة وسُليّى» بقدر ما هي عمل منذور ترسم الجمال، في شتى صوره وتجلياته وفي متناغم معانيه ودلالاته، فهي دليل قارئها إلى الحكمة المتعالية.. ولقد وجدتني أقرأها في نفس واحد دون انقطاع، ما كان لشيء أن يجتالني عنها، حتى أنهيتها..

إبراهيم العجلوني

يسجل لهذا العمل، مهارة عالية في البنية الفنية، وقدرة على الحفاظ على تماسك هذه الأبنية مع الاستفادة الواضحة من تقنية «تداخل المباني» التي جاءت في ألف ليلة وليلة حيث تنفتح الحكاية قبيل نهايتها على حكاية جديدة.

عبد الله رضوان

«توبة وسُليّى» منحى جديد في الرواية العربية جذوره في التراث وعوالمه أفلاك الروح باستخدام أعلى تقنيات السرد.

أروى عبيدات

ISBN: 9953-441-80-X
منشورات 2003
المؤسسة العربية للدراسات والنشر